الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالـــــي والبحث العلـــمـــــي
Ministry of Higher Education and Scientific Research
المركزالجامعي صالحي أحمد–النعامةUniversity Center Ahmed SALHI – NAAMA
معهد الادب واللغات
قسم
اللغة و الادب العربي

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في اللغة و الادب العربي بعنوان

السماع اللغوي ودوره في صناعة النحو العربي

ميدان اللغة الادب العربي
شعبة الدراسات اللغوية

تخصص لسانيات عربية

اسم الاستاذ	الرتبة	الصفة
اغا ياسر	استاذ محاضر " ا "	رئيسا
مصطفاوي اسماء	استاذ محاضر " ا "ا	مشرفا
حجازي عبد الوهاب	استاذ محاضر" ا "	ممتحنا

اشراف الاستاذة : مصطفاوي اسماء
اعداد
الطالبة : سعيدي فاطمة

الموسم الجامعي :
2025/2024

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

المركز الجامعي صالحي أحمد – النعامة –

معهد الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي

تصريح شرفي

خاص بالالتزام بقواعد النزاهة العلمية لإنجاز بحث

أنا الممضي أسفله :

السيد (ة) : سعيدي فاطمة

الصفة (طالب – أستاذ – باحث) طالب .

الحامل (ة) لبطاقة التعريف الوطنية رقم : 200732497

الصادرة بتاريخ : 2016 / 11 / 23

المسجل (ة) بكلية / معهد : المركز الجامعي صالحي أحمد معهد الآداب

قسم : اللسانيات العربية .

والمكلف (ة) بانجاز أعمال بحث (مذكرة التخرج – مذكرة ماستر – مذكرة ماجيستير – أطروحة دكتوراه) عنوانها :

السماع اللغوي ودوره في تطوير النحو العربي .

أصرح بشرفي أني ألتزم بمراعاة المعايير العلمية والمنهجية ومعايير الأخلاقيات المهنية والنزاهة الأكاديمية في إنجاز البحث المذكور أعلاه .

التاريخ : 2025 . 05 . 21

توقيع المعني

الإهداء و التشكرات

إلى من علمني العطاء بدون انتظار، وكلله الله بالهيبة والوقار، إلى الذي أحمل اسمه بكل فخر واقتدار، إلى من افتقدته منذ الصغر ويرتعش قلبي كلما ذكر، دائما نسير في دروب الحياة، ويبقى معنا من يسيطر على أذهاننا في كل طريق نسلكه، فلك أنت وحدك يا صاحب الوجه الطيب، والأفعال الحسنة ، فلم أراك تبخل علي بأي شيء طلية حياتي، انه أنت والدي العزيز، يا من أودعتني لله هدية، أهديك عصارة فكري إليك والدي العزيز.

إلى بسمة الحياة وسر والوجود، إلى ينبوع الصبر التفاؤل والأمل، إلى سندي وقوتي وملاذي بعد الله، إلى القلب الناصع بالبياض، إلى معنى الحنان والتفاني، إلى من كان دعمها سر نجاحي، وحنانها بلسم جراحي، إلى التي أفضلها على نفسي، فهي التي ضحت من أجلي والتي لم أراها يوما ما، تذخر جهدا في سبيل إسعادي دائما وأبدا .... **إليك أمي الحبيبة**

إلى توأم روحي ورفيقة دربي إلى صاحبة القلب الطيب والنوايا الصادقة إلى أختي الغالية
إلى الذين هم ملاذي ورمز فخري، واعتزازي وقرة عيني، فانا منهم وهم مني أخي وأخواتي وأبنائي الأعزاء.

إلى الذين كانوا لنا عونا في بحثنا هذا ونورا يضئ الظلمة التي كانت تقف أحيانا في طريقنا إلى من زرعوا التفاؤل في دربنا وقدموا لنا المساعدات والتسهيلات والأفكار والمعلومات ربما بدون أن يشعروا بدورهم بذلك، فلهم منا كل الشكر والامتنان واخص منهم بالذكر الأستاذة الفاضلة الدكتورة: أسماء مصطفاوي التي فضلت الإشراف على هذا البحث فجزاها الله خير الجزاء ولها مني كل التقدير والاحترام.

إلى كل من في هذا الوجود بعد الله ورسوله إلى أمي ومن آثروني على أنفسهم، إلى من علموني علم الحياة ، و تذوقت معهم أجمل اللحظات، إلى من أتمنى أن اذكرهم إذا ذكروني، إلى من أتمنى أن تبقى صورهم في عيوني.

إلى أساتذتي الكرام فمنهم استقيت الحروف، وتعلمت كيف انطق الكلمات، وأصوغ العبارات، واحتكم إلى القواعد في الدراسات والتعليلات، إليكم اهدي رسالتي داعية المولى عز وجل أن تكلل بالنجاح والقبول من قبل أعضاء لجنة المناقشة والتقويم المبجلين.

الطالبة: فاطمة سعيدي

المقـــــدمة

مقـــــــدمة

بسم الله الرحمان الرحيم و الصلاة وسبحانه الذي جعلنا نبحث فيما ينفع الناس والسلام على أشرف المرسلين سيدنا و حبيبنا محمد صلى الله عليه و سلم الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وأنار طريقها وقادها إلى بر النجاة والأمان أما بعد:

تمثل القواعد اللغوية في الفكر اللغوي عند العرب الصورة النظرية التي أثبتها العلماء للواقع اللغوي الكبير، الذي ورثناه في ثقافتنا العربية إذ شهدت الثقافة العربية الإسلامية بعد نزول القرآن الكريم ثورة فكرية متعددة ، في مناخ متعددة كان النحو العربي هو الجهد الأهم فيها، فالعرب نظروا لمورثهم الثقافي بقدر من الاحترام والتقدير فافردوا له الصفحات الكثيرة في دراستهم ليكون هذا الجهد الفكري مرحلة مهمة في ارتقاء العقل العربي، بعد التعاطي الجديد الذي أصبح يمارسه مع النص القرآني في أبعاده الإعجازية، من لغة وبلاغة وبيان، فالعرب وقفت طويلا أمامه وهي تعرف العربية مند القدم، وتملك نواصيها بكل خصوصية وإبداع والتاريخ يسجل انه لم يحدث حدث في تاريخ العرب ولغتها العربية أبعد اثر في تقرير مصيرها من ظهور الإسلام.

وقد استنبطت القواعد من القران الكريم وقراءاته الصحيحة ثم من السنة النبوية والصحيح المثبت منها ومن الشعر العربي موثوق النسب وكلام العرب الأقحاح ممن اشتهرت فصاحتهم بين القبائل.

ذلك أن اللغة العربية نشأت في أحضان الجزيرة ، بعيدة عن كل ما يدنسها فغدت اللغة الفصاحة والصمود، فقد عزها الله وأشاد بها حيث شرّفها بتنزيل القرآن بها قال تعالى{إنّا أنزلناه قرآنا عربيا}[يوسف آلية02]فصارت الأمة الإسلامية أبلغ الأمم فصاحة وأعزّها شأنا قال الله تعالى:{و كنتم خير أمّة أُخرجت للنّاس}[آل عمرانآلية11]و مع سطوع نور الإسلام، و اتساع رقعته ودخول العجم فيه ،تباينت الألسنة و تسرّب اللحن إليهم،فكان لزاما على العرب إيجاد حل للحفاظ على دينهم و قرأنهم من التحريف و الخطأ في النطق فهبّ من الرجال العلماء الذين كرسوا جهودهم ووظفوا عقولهم لخدمة اللغة العربية حفاظا على كتاب الله وصيانة لسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وحماية اللسان العربي من اللحن

والعجمى والضياع والفساد،فوضعوا علم النحو للدفاع عن عقيدتهم وحضارتهم، وقد اشتد التنافس بين العلماء لتحصيله وإحرازه لحاجتهم إليه فنشأ وتطوّر في القرنين الهجريين الأول والثاني فهو يشكل أهم الركائز التي تقوم عليها اللغة العربية، كونه يعتبر أبو العلوم وهمزة وصل بينها.

فقد سبق غيره في الوجود و نظرا لهذه المكانة التي تبوّأها النحو،رأينا أنه لا من الكشف عن خبايا هذا العلم لذلك آثرت أن يكون عنوان مذكّرتي السماع ودوره في تطور النحو العربي.

وقد ساورتني كثرة الأسئلة حول موضوع السماع والضوابط القاعدية لمعرفة اللغة العربية فصيحها مندخيلها على الرغم من إعرابيتها فكان لا بد من الوقوف عند عدة قضايا لغوية هامة ومعالجتها ومن أهم نقاطها ما يلي:

نشأة النحو العربي في ظروف حرجة وسط صراعات قبلية

-2المدونة اللغوية والحدود الجعرافيا قواعد عامة مجملة

-3كيف تميزت مرحلة جمع اللغة ومشافهة الأعراب واستخدام الضوابط النحوية ؟

-4لماذا انحصر تجميع اللغة في مرحلة محددة وبيئة لغوية معينة؟

-5ما دور السماع القياس في نضج تطور النحو بعدما كان ؟

-6لماذا اعتمدت الدراسات اللغوية عن حاسة السمع وعدها العرب الوسيلة المثلى في اكتساب ونقل كل معلوماتهم ؟

وهي إشكالية للبحث الذي أنا بصدد خوض غماره عسى أن أكون موفقة إلى حد بعيد.

ومن هنا يتضح لنا جليا أن التراث العربي اعتمد أساسا على حاسة السمع في النقل والتبليغ وقد أديا إلتخليص العربية في أصواتها وكلماتها وتراكيبها من كل ما يشوبها من المركبات الصوتية العسيرة نطقا،وغير المستصاغة سمعا، ما جعل الكلام العربي أكثر انسجاما واتزانا والعربية سلاسة وانسيابا.أما المنهج الذي اتبعه القدماء أثناء جمعهم للمادة اللغوية فإن أكثر الدراسات الحديثة قد وصلت إلىنتيجة حتمية هي أن القدامى كان لهم منهج دقيق ينتسب إلى الدراسات اللسانية الحديثة فكان لهم فضلالسبق إليه وهو المنهج الوصفي، الذي يهتم بدراسة اللغة دراسة علمية في مكان وزمان معينين، فقدأخذوا عن القبائل الشرقية والشمالية من الجزيرة العربية ولم يؤخذوا عن جهات أخرى، أما الفترة

الزمنية فمن العصر الجاهلي قبل الإسلام ب 200الى القرن الرابع الهجري.وجاء خطة الموضوع كما يلي:

التمهيد : يشمل على نبذة قصيرة عن ماهية النحو العربي و أهميته

الفصل الأول: يدور الحديث فيه عن نشأة النحو العربي و قد تناولنا فيه المباحث التالية:

- 1السماع أصل النحو
- 2نشأة النحو العربي
-3أهم وأشهر علماء النحو
-4أطوار النحو العربي
- 5ظهور المدارس النحوية
-6مدرسة البصرة
-7مذهب مدرسة البصرة
-8ظهور مدرسة الكوفة
-9مذهب مدرسة الكوفة
-10الخلاف بين المدرستين

أما الفصل الثاني فقد تناولت فيه الدراسات اللغوية بين الأصالة والمعاصرة

فنظرا لارتباط الدراسات اللغوية للغات من نشأتها إلى يومنا بالجانب النحوي ونظرا لظهور اتجاهاتفكرية معاصرة في هذا المنحى ، فكانت هناك نظريات لغويه حديثة تناولت موضوع النحو بالدراسةوالتحليل والتعليل من منظور جديد فتعددت الاتجاهات والآراء ظهرت مداريس لغوية حديثة لها قوانينها ومعايرها العلمية في نظرتها للغة، وارتفعت الأصوات العربية من مؤيد ومناوئ، وانشغل الكثير من علماء اللغة المحدثين في الدفاع من الموروث النحوي القديم والذين تاثروا بغيرهم في ظل النظريات اللغوية الجديدة الداعية إلى تيسيره وتجديده فكان لزاما علينا ان نتطرق إلى هذه الدراسات المعاصرة والى النظريات اللغوية التي تهتم بالجانب النحوي للغة العربية وحتى يكون الموضوع
مكتمل الجوانب.

مقدمة الفصل الثاني

-1الدراسات اللغوية بين الأصالة والمعاصرة

-2المدرسة البنيوية

-3الدراسات اللغوية بين الوصف والتحويل

-4المنهج اللغوي

-5اللغة العربية والمنهج الوصفي

-6المنهجية التحويلية

-7الدرس اللغوي والمنهج التحويلي

-8عناصر تطبيق المنهج التحويلي

هناك أبحاث ودراسات كثيرة تداولت الموضوع من عدة جوانب وقيل فيه الكثير واختلفت الآراء الباحثين وتضاربت وذهب كل منهم مذهبه متمسكا بوجهة نظره الخاصة في الموضوع، الأمر الذي دفعني وشجعني وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى إلى خوض غمار هذه التجربة البحثية العلمية من خلال قراءتي لمختلف هذه الأبحاث تكونت لي قناعة راسخة للقيام بدراسة وتحليل هذه الآراء للوصول إلى النتيجة الصحيحة والمقنعة مستخدمة جميع الطرق والمناهج البحثية المناسبة التي تتوافق مع هذا النوع من الدراسات كالمنهج الوصفي التحليلي والاستعانة بالمنهج التاريخي، معتمدة في الوقت نفسه على أمهات المصادر والمراجع الموثوقة راجية من المولى الكريم أن يوفقني في هذا العمل. كأي بحث مهما كانت أبعاده العلمية سواء سهلة المنال أو صعبة لا بد من مواجهة جملة من العراقيل والصعوبات، وقد واجهتها في الترتيب، والتنظيم أيضا الذي يعد من أهم سمات التفكير العلمي، فالباحث لا يرسل أفكاره إرسالا وإنما يحاول أن يرتبها وينظمها، ويبني بعضها على بعض، باذلا في ذلك مجهودا هدفه تحقيق أفضل تنظيم ممكن للطريقة التي يفكر بها، فغزارة المادة ووفرتها وكثرة ومنابعها كانت سببا في عدم الإلمام بالمادة كاملة، ومن المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في بحثي : الكتاب لسيبويه، طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، بغية الوعاة للسيوطي، ونشأة

النحو وتاريخ أشهر النحاة لمحمد الطنطاوي مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري، الخصائص لابني جني النحو الوافي لعباس حسن. قصد الوصول إلى نتائج صحيحة وأهداف مرجوة.

وفي ختام بحثي أتقدم بالشكر والامتنان لكل من قدم يد لي المساعدة من قريب أو بعيد بخاصة أستاذتي الفاضلة الدكتوة: مصطفاوي أسماء على ما قدمته لي من نصائح وتوجيهات والأخذ بيدي لإنجاز هذا البحث، سائلاً العلي القدير أن أكون قد وفقت في بيان كافة المعلومات المتعلقة بموضوع بحثي، وسوف أقوم بتقديم جميع عناصر هذا البحث أشرح أهدافه وأعمل على تقديم المقترحات الخاصة به، على أمل الرقي والنجاح في تقديم المطلوب. وإني على يقين بأن البحث العلمي هو العمل الذي يخدم البشرية أجمع وينير كل الدروب المظلمة فالعلم نور وما أجمل أن ينير الله قلوبنا ودروبنا بنوره فقد بذلت جهدا لا يستهان به لكي أصل إلى ما سينتهي إليه هذا البحث وفي النهاية أدعو الله أن يجعل بحثي هذا عمل ينتفع به الجيل القادم من الطلبة الباحثين وأشجعهم فربما هذه المذكرة تكون نبتة صغيرة تخرج منها فروع وأشجار تظل المجتمع وتملؤه حباوإيمانا. وأتمنى من الله التوفيق.

الطالبة سعيدي فاطمة

المركز الجامعي" الصالحي احمد" النعامة

الفصل الأول

نشأة النحو العربي

- **تمهيد**
- **السماع أصل النحو**
- **أسباب نشأة النحو العربي**
- **أشهر علماء النحو العربي في بداية النشأة**
- **أطوار النحو العربي**
- **ظهور أبرز المدارس النحوية**
- **مدرسة البصرة**
- **مذهب البصرة**
- **مذهب الكوفة**
- **الخلاف بين البصريينوالكوفيين**

الفصل الأول نشأة النحو العربي

تمهيد

علم النحو بوصفه أحد الأركان المهمة للغة العربية تمّ تأسيسه من أجل صيانة اللغة من الخطأ واللحن في الكلام. وقد تجسدت مبادئ هذا العلم في الآراء النحوية لخليل بن أحمد، وتلميذه سيبويه، ثم ظهر نحاة آخرون اهتموا باستنباط قضايا علم النحو وتدوين أصوله. لكن ظهرت أسباب أدت إلى خروج النحو من مجراه

الطبيعي وتورطه في مشكلات عديدة؛ فمن تلك الأسباب يمكن أن نشير إلى ما يلي: اختلاط علم النحو بعلوم أخرى لا تمتّ إلى اللغة بصلة، ولاسيما علمي المنطق والفلسفة، والمنهج الخاطئ للنحاة في دراسة قضايا اللغة، والإفراط في التركيز على القواعد كالمسيطر القاهر على اللغة وقلة الاهتمام بالجانب الوظيفي للغة، والاهتمام البالغ بالقضايا اللغوية النادرة والقليلة الاستعمال، والاستشهاد بالشواذ ودراسة اللهجات المختلفة والخلافات النحوية، واللجوء إلى التأويل، ونقائص في منهج تصنيف الكتب النحوية، والابتعاد عن واقع اللغة في إطار تحاليل غير لغوية .

فمن هذا المنطلق، يتناول هذا البحث دراسة العوامل المؤثرة في ظهور هذه المشكلات ويتبع المنهج الوصفي ـ التحليلي، ويبدأ بوصف المشكلات ومظاهرها، ثم يحاول تقديم المقترحات والحلول المناسبة لهذه المشكلات وتيسير النحو

السماع أصل النحو

الأصل الأول من أصول النحو السماع مراد علماء النحو السماع الذي هو الأصل الأول من أصول النحو، ذكر السيوطي أن السماع- ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته، فشمل هذا كلام الله تعالى، وهو القرآن الكريم، وهو أفصح كلام وأبلغه، وكلام نبيه -صلى الله عليه وسلم- وهو الحديث النبوي الشريف، وكلام العرب قبل بعثته وفي زمنه وبعده إلى أن فسدت الألسنة بكثرة المولدين نظما ونثرا من مسلم أو أعجمي .

فهذه ثلاثة أنواع لا بد في كل منها من الثبوت أما القرآن الكريم فكل ما ورد أنه قُرئ به؛ جاز الاحتجاج به في العربية، سواء كان متواترا أم آحادًا أم شاذًّا، فالقرآن الكريم -كما قيل- فوق النحو، والفقه، والمذاهب كلها، فهو الأصل الأصول، ما وافقه فهو مقبول، وما خالفه فهو مردودٌ ومرذولٌ، وذلك أن لغة القرآن الكريم هي أفصح أساليب العربية على الإطلاق، وأن الكتاب أعرب وأقوى من الشعر، كما قال الفراء -رحمه الله تعالى1.

1- انظر: النحو إلى أصول النحو، عبد الله بن سليمان العتيق ص54

وضح السيوطي في هذه الفقرة أن القراءات الشاذة أجمع النحويون على الاستشهاد بها في تقعيد القواعد إذا لم تُخالف قياسًا معروفًا، وإن خالفته أجمعوا على الاحتجاج بها أيضًا لكن في خصوص ما وردت فيه من غير أن يُقاس عليها، وقد أشار إلى ذلك ابن جني في غير موضع من الخصائص.

أورد السيوطي مثالين للاحتجاج بالقراءات الشّاذّة فقال" :وما ذكرته من الاحتجاج بالقراءات الشاذة لا أعلم فيه خلافًا بين النحاة، وإن اختُلف في الاحتجاج بها في الفقه، ومن ثَمَّ احْتُجَّ على جواز إدخال لام الأمر على المضارع المبدوء بتاء الخطاب بقراءة" :فبذلك فلتفرحوا "يونس: 1

ولقد تشكلت مدارس علمية لغوية تحول غير العرب عن طريقها إلى علماء أصَّلوا وألَّفوا في العربية بل صاروا أفضل ممن ألف فيها كما هو الحال لسيبويه وسماعه لأستاذه الجليل الخليل بن أحمد الفراهيدي ويونس بن حبيب، كما أن هؤلاء العلماء لم يكتفوا بذلك بل اتجهوا إلى البادية يلقون الأعراب الفصحاء وينقلون عنهم، ويستشهدون بكلامهم، ويوثقون بأقوالهم وآراءهم اللغوية والنحوية .

إن الرواية عن الأعراب الفصحاء ومخالطتهم ومجالستهم ومعايشتهم شكلت عنصرًا مهمًا لدى علماء العربية في صياغة أصولها وقواعدها، كما أثر ذلك كله في تشكيل وصياغة ملكاتهم اللغوية؛ فسيبويه غير العربي يؤلف أفضل كتاب في العربية وقواعدها وهو(الكتاب)، سمي (قرآن النحو)، وحاول العلماء أن يتسقطوا له أخطاء فأعجزهم لدقة تأليفه رغم يافعة سنه، إلا هنات قليلة تحتمل التأويل

إن كثرة المدارسة، وكثرة الرواية عن الأعراب الفصحاء ومخالطتهم أكسبت علماء العربية الدراية بخبايا وأسرار العربية، لقد أسهم التلقي والسماع في تشكيل المدارس النحوية التي قامت آراء أصحابها النحوية واللغوية على ماسمعوه من كلام الأعراب الفصحاء الذين خالطوهم وعايشوهم، وقياسهم عليه واشتقاقهم منه، إن اللغة العربية عاشت ومرت بمراحل مختلفة؛ ففي مرحلة نضج السليقة اللغوية وسلامتها عاشت اللغة فترة طويلة من الشفاهية لعبت فيها المشافهة والسماع دورا مهما في التأصيل والتأسيس والترسيخ لقواعد اللغة فقد تحولت العربية من الصورة الشفاهية (الحيوية) إلى المرحلة الكتابية (السكونية)، ومن الممارسة الواقعية والفعلية إلى التأصيل والتقعيد 2 .

1- انظر: المدارس النحوية (مدرسة البصرة) - مقالة لأحمد الفقيه.ص 86

2 انظر: المرجع السابق.259

وعندما بدأت لحظة الضعف تتسرب للغة نتيجة اختراق البيئة اللغوية الفصيحة النقية)بيئة الجاهليين والإسلاميين)، وضعفت السليقة اللغوية بناء على ذلك نتيجة مخالطة غير العرب فبدأت مرحلة الكتابية والتدوين والتقعيد اللغويين لتثبيت القواعد ووضع الأصول والقواعد اعتمادًا على المرحلة اللغوية القوية من مراحل النضج اللغوي مرحلة المشافهة والسماع التي تمثل البيئة اللغوية النقية والسليمة، وبقيت آثارها ولا زالت هي أصل التقعيد والتعليم للغة العربية حتى وقتنا الحاضر.

إن السماع في العربية هو أصل التقعيد وأصل القياس وأصل الاحتجاج، فقد استند أصحاب المدارس النحوية كما أشرنا في آرائهم ومناقشة قضايا اللغة وترجيح رأي أو وجهة نظر على أخرى على السماع عن العرب وجمع أشعارهم وأقوالهم وحكمهم وأمثالهم واستندوا عليها في الاحتجاج اللغوي ووضع قواعدها وتأصيلها، هكذا فعل علماء اللغة فسيبويه اعتمد في صياغة قواعد الكتاب عما تلقاه من أساتذته الخليل بن أحمد

الفراهيدي ويونس بن حبيب؛ فقد أسس كثيرًا من آرائه في الكتاب على ما سمعه بنفسه عن العرب الخلص، فكثيرًا ما نجد عبارات في كتابه تدل على ذلك، مثل(سمعته عن الأعراب)، و(العرب تقول)، وهكذا سمعته عن العرب الفصحاء، وكذلك امتلأ كتاب (الخصائص) لابن جني بمثل هذه العبارات 1.

إن اللغة العربية حياتها وحيويتها تكمن حقيقة في السماع والمشافهة؛ ذلك لطبيعة أصواتها والارتباط الشديد بين المستوى الصوتي والمستوى الدلالي فيها .

أسباب نشأة النحو العربي ودوافعه

كان العرب في جاهليتهم ينطقون عن سليقة، فكانوا أفضل الناس في نظم الشعر والقافية، يتحدثون بطلاقة وصحة لغوية لا تحتاج منهم تفكير ولا تنظيم .

كانت اللغة العربية خاصة بالعرب محصنة في الجزيرة العربية، لكن بعد اتساع رقعة الإسلام، وكون اللغة العربية لغة المسلمين عامة وحين بدأت الفتوحات الإسلامية توسع لتشمل شعوب لا تنطق باللغة العربية، ودخولها الإسلام وامتزاجها بالعرب الفاتحين، تسرب اللحن إلى اللغة العربية وانتشر التحريف بين المستعربين ذوي الأصول غير العربية الذين تعلموا

1انظر: جامع الدروس العربية - مصطفى الغلاييني 1 /9

اللغة العربية بعد إسلامهم، ليس فقط المستعربين بل انتشر التحريف واللحن بين العرب أنفسهم، وبدأ ذلك يظهر في العراق، وبخاصة مدينة البصرة؛ حيث كانت تقع على الطريق التجاري الذي يربط بين الدول، وسبب ذلك وجود ألسنة متنوعة مختلفة في العراق، وبدخولهم الإسلام ورغبتهم تعلم اللغة العربية ظهر بعض التحريف واللحن في اللغة العربية وقد وصل للقرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة.

فكان من الضروري وضع قواعد لضبط الألسن ووقف اللحن والتحريف الذي زحف إلى اللغة العربية، وكان هذا بداية وضع علم النحو عند العرب لضبط اللغة العربية والمحافظة عليها 1.

وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا، ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم.

فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه بالأشباه ، مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ، والمبتدأ مرفوع ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسميته إعرابا، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا ، وأمثال ذلك ، وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو.

وتدوين القواعد المستنبطة من القرآن وأقوال العرب وأشعارهم.وثبت ما ذكره (أبو بكر الزبيدي) صاحب كتاب (الواضح) في النحو، في مقدمة كتابه (طبقات النحويين واللغويين): "ولم تزل العربية تُنطق على

سجيتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان، فدخل الناس فيه أفواجًا وأقبلوا إليه أرسلًا، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة، واللغات المختلفة، ففشا الفساد في اللغة العربية، واستبان منه في الإعراب الذي هو حلها، والموضح لمعانيها، فتفطن لذلك من نافر بطباعة سوء إفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم إلى أن سببوا الأسباب في تقييدها أمن ضاعت عليه، وتثقيفها لمن زاغت عن ذكرنا فيم سبق أنّ اللحن الذي أصاب اللغة العربية بعد انتشار الإسلام هو من أهم الأسباب التي استدعت ضرورة وضع قواعد للغة العربية وتكوين الجمل متمثلة في علم النحو 2

ولم يكن الحفاظ على القران هو الدافع الوحيد إلى التفكير في وضع قواعد وأصول لحماية اللغة وضبطها، وإنما كانت هناك دوافع أخرى تضافرت جميعها على القيام بهذا العمل الجليل وواضح هذه الدوافع

1انظر: قواعد اللغة العربية -حفني ناصف ومحمد دياب و مصطفى طموم ومحمود عمر وسلطان محمد - ص11.

2- نظر: التحفة السنية بشرح المقدمة الآجرومية - محمد محي الدين عبد الحميد - ص14

1- الدافع الديني

وهو الدافع الرئيس والسبب المباشر الذي أدى إلى التفكير في وضع ما يسمى بعلم العربية على اختلاف فروعه وعلومه من أصوات ولهجات ومعجميات وغريب ونحو وصرف. فقد كانت خشية المسلمين على كتابهم أن يصيبه اللحن في قراءته أو التصحيف في أحرفه ، فيؤدي ذلك إلى تحريف آياته، وتغيير المفهوم منها ، وبذلك تتغير الأحكام المأخوذة منه، والمبنية عليه ، ويصبح المفهوم من الآية كفرا وهو إيمان أو حراما وهو حلال .1

2- الدافع الاجتماعي

ويأتي هذا الدافع مكملا للدافع السابق ، ومرتبطا بد اشد الارتباط وأوثقه، فقد كانت البيئات الإسلامية كافة تغص بالقوميات المختلفة التي كانت تسكن في البلاد المفتوحة أو التي هاجرت إليها بعد الفتوح الإسلامية ولاسيما البصرة .... فخشي علماء المسلمين على لغة القرآن من أن يصيبها التحريف نتيجة هذا الاختلاط، ولكثرة الداخلين في الإسلام من الذين يودي بهم جهلهم إلى الخطأ في قراءة القران ،فأخذوا يبذلون الجهود في سبيل ضبط اللغة وإبعاد اللحن ..... وكان لرغبة الداخلين فيالإسلام في تعلم العربية لغة القران، والعبادات الدينية ولغة الدولة الحاكمة ليصلحوا بها أمور دينهم وليستطيعوا مشاركة العرب في إدارة شؤون الدولة..

3- الدافع اللغوي القومي

كان في البلاد العربية عند نشوء اللحن ووقوعه في اللغة العربية ثلاث لغات متداولة ...) 2

أ - إن اللغة المحكية في الحواضر حتى نهاية القرن الأول أو اللغة المثالية وبها نزل القران كما تقول تقول جميع المصادر.

ب ـ اللغة البدوية المستخدمة في البوادي وهي التي اعتمدها النحويون واللغويون .

جـ ـ لغة الحواضر المحكية بعد القرن الأول للهجرة، التي استخدمت في مكة والمدينة والطائف والحيرة وأطراف الشام.

(وقد أدى اختلاط لغات هذه الحواضر بلغات القوميات المختلفة وغيرها إلى فساد لغتها... ولذلك أصبحوا يرسلون أولادهم إلى البادية لتلقي اللغة الفصيحة...3

1- انظر:. الكتاب عمرو بن عثمان بن قنبز الحارثي الملقب النحقق عبدالسلام محمد هارونسيبويه ج 2 الباب ص 66.

2- انظر: شرح الآجرومية - حسن حفظي 1/ 2.

3- انظر: الكتاب عمرو بن عثمان بن قنبز الحارثي الملقب النحقق عبدالسلام محمد هارون سيبويه ج 2 الباب ص 66.

و بعد انتشار الإسلام خاف العرب المسلمون على لغتهم لغة القران من التحريف والذوبان والضياع، ودفعهم الأمر إلى ضبطها وتقييدها بما وضعوا لها من قواعد.

أشهر علماء النحو العربي في بداية النشأة

أهم علماء النحو عليّ بن أبي طالب علي بن أبي طالب ابن عبد مناف بن عبد المطلب، وهو ابن عمّ الرسول الكريم، وأحد الصحابة المبشرين بالجنة، كما كان يسمى بأسماء أخرى، ومنها: شيبة بن هاشم، وعمرو بن عبد مناف، وكان يُكنّى بأبي الحسن، وأبي تراب، وهذه الكنيّة كناه بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، وعرف عنه علمه الواسع، وشجاعته، وكرمه، وفصاحة لسانه حيث قال العديد من الحكم والأشعار.1

أبو الأسود الدؤلي

يُسمى ظالم بن عمرو بن سفيان، ويسمى أيضاً ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان، فيما تعدّدت الروايات في اسمه ونسبه، وعُرف الدؤلي برجاحة العقل، وصواب رأيه، والثقة في حديثه، وسرعة بديهته، وإليه تردُّ معظم الروايات في نشأة علم النحو، وهو من رجالات مدينة البصرة،

رأينا البصرة تضع على يد أبي الأسود الدؤلي نقط الإعراب، وقد مضى الناس يأخذونه عن تلاميذه. ولعلنا لا نبعد إذا قلنا: إن ذلك كان باعثا لهم ولمعاصريهم على التساؤل عن أسباب هذا الإعراب, وتفسير ظواهره مما هيأ لبعض أنظار نحوية بسيطة. وكان طبيعيا بعد أن رسموا نقط الإعجام أن يضعوا له هذا الاسم وأن يضعوا لنقط أبي الأسود اسم نقط الإعراب تمييزا لهما بعضهما عن بعض، كما كان طبيعيا أيضا أن يطلقوا على علامات النقط الخاصة بالإعراب أسماء تفرق بينها، وقد اشتقوها من كلماته لكاتبه "فتحت شفتي وضممتهما وكسرتهما "فسموه على التوالي نقط الفتحة ونقط الضمة ونقط الكسرة. ولا بد أنهم لاحظوا اختلافا في إعراب الأسماء حسب مواضعها من الكلام.2

فهي إذا ابتدأ بها المتكلم في العبارة لزمها الرفع إلا إذا تقدمتها إن وأخواتها، وإذا تلت فعلا كانت إما مرفوعة وإما منصوبة. ولا يبعد أن يكونوا قد وضعوا لذلك "مصطلحات المبتدأ والفاعل والمفعول ، ولا يبعد أيضا أن

يكونوا لاحظوا اختلافا في كلمات اللغة وأن منها ما يقبل الحركات الثلاث: الضمة والكسرة والفتحة، وهو الأسماء المعربة، وأن منها ما يلزم حركة واحدة وقد يلزم السكون، وسموا الأولى معربة والثانية مبنية.

1- انظر: المرجع السابق.87

2- انظر: تاريخ النحو - علي النجدي ناصف - ص 6، 7.

وقد توفي فيها في العام التاسع والستين للهجرة عن عمر ناهز الخامسة والثمانين عاماً بعد أن أصيب بمرض الطاعون، وكان قد ذُكر عنه أنّه روى الحديث عن الكثير من الصحابة أمثال عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وأبي ذر -رضي الله عنهم جميعاً-

الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري

عربي من أزد عمان، ولد سنة مائة للهجرة، وتوفي سنة مائة وخمس وسبعين، ومنشؤه ومرباه وحياته في البصرة، وقد أخذ يختلف منذ نعومة أظفاره إلى حلقات المحدثين والفقهاء وعلماء اللغة والنحو، وأكبّ إكبابا على حلقات أستاذيه عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء، كما أكب على ما نُقل من علوم الشعوب المستعربة، وخاصة العلوم الرياضية، وكان صديقا لابن المقفع مواطنه، فقرأ كل ما ترجمه وخاصة منطق أرسطو وطاليس، كما قرأ ما ترجمه غيره من علم الإيقاع الموسيقي عند اليونان، وحذق هذا العلم حذقا جعله يؤلف فيه كتابا كان الأصل الذي اعتمد عليه إسحاق الموصلي في تأليف كتابه الذي صنفه في النغم واللحون .

وكان عقل الخليل من العقول الخصبة النادرة، فهو لا يلم بعلم حتى يلتهمه التهاما، بل حتى يستوعبه ويتمثله وينفذ منه إلى ما يفتح به أبوابه الموصدة، وحقا ما قاله ابن المقفع فيه من أن عقله كان أكثر من علمه، وهو عقل جعله يتصل بكل علم ويحوز لنفسه منه كل ما يبتغي من ثراء في التفكير ودقة في الاستنباط، دقة تذهل كل من يقف على وضعه لعروض الشعر ورفعه لصرح النحو ورسمه المنهج الذي ألف عليه معجم العين أول معجم في العربية. ولما أدركته الشهرة لم يستغلها لنفسه وتحقيق ما حققه بعض معاصريه من الثراء العريض، بل مضى مزدريا للشهرة وما قد يطوى فيها من مجد مادي، مكتفيا بكفاف العيش، وفي ذلك يقول النضر بن شميل أحد تلاميذه" :أقام الخليل في خص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلس, وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال . "1

وعلى هذا النحو كان يزدري الخليل متاع الحياة الدنيا الذي كان الناس يشغفون به من حوله، ومتاع واحد هو الذي كان يلتمسه ويسعى إليه ويلح في السعي، هو المتاع العقلي الذي جعله يتكلف الجهد العنيف في فتح أبواب العلوم اللغوية التي طال على العلماء من قبله ومن حوله قَرْعها دون أن تنفتح لهم، حتى إذا مستها عصاه السحرية انفتحت كل المغاليق وذلت له وانقادت. وأول ما يلاحظ من ذلك اكتشافه علم العروض اكتشافا ليس له سابقة ولا تدانيه لاحقة، إذ استطاع

1- انظر: المدارس النحوية (مدرسة البصرة) - مقالة لأحمد الفقيه.ص 66

أن يرسمه بكل أوزانه وحدوده وتفاعيله وتفاريعه، غير مبق لمن جاءوا بعده شيئا يضيفونه إليه. وهو يحمل في تضاعيفه ما يشهد بتمثله تمثلا رائعا للنغم وعلم الإيقاع ومواضعه, كما يحمل ما يشهد بإتقانه لنظريات العلوم الرياضية في عصره علما وفقها وتحليلا، وخاصة نظريتي المعادلات، والتباديل والتوافيق، فقد اشتق له تفاعيل خاصة، وأدارها في دوائر كدوائر المهندسين مستخدما إشارات من النقط والحلقات تصور ما يجري في التفعيلات من زحافات، كما تفسح لأجزائها في التقدم والتأخر، بحيث تجمع الأوزان العروضية التي عرفها العرب وما لا يحصى من أوزان جديدة لم يعرفوها ولا ألفوها، مما أتاح للعباسيين أن ينظموا على أوزان جديدة أهملها أسلافهم ,ولم يودعوا فيها شيئا من منظوماتهم .1

ولم يستغل الخليل نظرية التباديل والتوافيق الرياضية في وضعه علم العروض فحسب، فقد استغلها أيضا في وضع منهج قويم لمعجم العين المشهور، إذ بناه على تقليب كل الصيغ الأصلية، بحيث تندرج فيه مع كل كلمة الكلمات الأخرى التي تجمع حروفها, وتختلف في ترتيبها بتقديم بعض منها على بعض، فكتب مثلا يوضع معها: كبت، وتكب، وتبك، وبكت، وبتك. وبذلك حصر في المعجم جميع الكلمات التي يمكن أن تقع في العربية، مميزا دائما بين ما استعملته العرب منها وما أهملته ولم تنطق به، على نحو ما ميز في العروض بين الأوزان المستعملة والأخرى المهملة. ورأى أن يكون ترتيب الكلمات في المعجم على مخارج الحروف ومواقعها من الجهاز الصوتي وهو الحلق واللسان والفم والشفتان، بادئا بحرف العين وبه سماه. وهو صنيع يلتقي فيه بصنيع الهنود في ترتيبهم لحروف لغتهم السنسكريتية وربما عرف ذلك من بعض نازلتهم في موطنه، وهي في معجمه مرتبة على هذا النحو:

العين، الحاء، الهاء، الخاء، الغين، القاف، الكاف، الجيم، الشين، الضاد، الصاد، السين، الزاي، الطاء، الدال، التاء، الظاء، الذال، الثاء، الراء، اللام، النون، الفاء، الباء، الميم، الياء، الواو، الألف .

وهو ترتيب أساسه كما ذكرنا آنفا مخارج الحروف ومدارجها، وهي عنده سبعة عشر مخرجا موزعة على الجوف والحلق وأول الفم ومناطق اللسان وحافته وطرفه والثنايا والشفة السفلى والشفتين. واتهم القدماء مادة هذا المعجم وقالوا :إنها ليست من عمله، وإنما هي من عمل تلميذه الليث بن رافع باسطين في ذلك أدلة قوية، 14 غير أنهم اتفقوا على أنه هو الذي رسم منهجه له، لما لاحظوه من التقاء منهجه بمنهج علم العروض الذي رسمه، وقيام المنهجين جميعا على أساس نظرية التباديل والتوافيق .2

1- انظر: طبقات النحويين واللغويين محمد الحسن للزبيدي، المحقق محمد أبو الفضل ابراهيم ص234

2- مغني اللبيب في كتب الأعاريب لابن هشام الانصاري المصري ص234

كان عقل الخليل عقلا فذا، كلما مس شيئا نظمه واستنبط قوانينه ودقائقه، وقد سلط هذا العقل على قوانين العربية في النحو والتصريف. فإذا هو يكتشفها اكتشافا دقيقا، وحقا لم يترك فيها كتابا جامعا، إنما ترك، إن صح ما ذكره المترجمون له، كتابات فرعية كرسالة له في معنى الحروف, وثانية في جملة آلات الإعراب، وثالثة في العوامل, ويظن القفطي أنها منتحلة عليه، ورابعة لعلها من عمل غيره إذ تسمى "شرح صرف الخليل . "ولكنه إذا كان لم يترك في النحو والتصريف كتابا كبيرا مأثورا يضم فروعهما وشعبهما الكثيرة,، فإن تلميذه سيبويه سجل في كتابه كثيرا من بحوثه النحوية والصرفية، حتى كأنه كان موكلا بأن لا يترك له رأيا مهما يتصل بقواعد العِلْمين ومسائلهما إلا دوّنه حتى قال القدماء: إن كتابه من تصنيفه وتصنيف أستاذه الخليل وعبروا عن ذلك عبارات مختلفة من مثل قول ثعلب" :الأصول والمسائل في الكتاب للخليل"، ويقول أبو الطيب اللغوي" :عقد سيبويه كتابه بلفظه ولفظ الخليل"، ويقول السيرافي" :عامة الحكاية في كتاب سيبويه عن الخليل أستاذه، وكل ما قاله سيبويه, سألته أو قال من غير أن يذكر قائله فهو الخليل . "وكل من يقرأ الكتاب يحس في وضوح بما قاله ثعلب من أن الأصول وأمهات المسائل النحوية والصرفية من عمل الخليل، وكأنه بالقياس إلى سيبويه كان الكنز الذي لا ينفد 1.

سيبويه

اشتهر بلقبه سيبويه، وهو لقب أعجمي يدل على أصله الفارسي، واسمه: عمرو بن عثمان بن قنبر، من موالي بني الحارث بن كعب، ولد بقرية من قرى شيراز تسمى البيضاء، وفيها أو في شيراز تلقن دروسه الأولى، وطمحت نفسه للاستزادة من الثقافة الدينية، فقدم البصرة وهو لا يزال غلاما ناشئا، والتحق بحلقات الفقهاء والمحدثين، ولزم حلقة حماد بن سلمة بن دينار المحدث المشهور حينئذ، وحدث أن لفته إلى أنه يلحن في نطقه ببعض الأحاديث النبوية، فصمّم على التزود أكبر زاد بشئون اللغة والنحو، ولزم حلقات النحويين واللغويين وفي مقدمتهم عيسى بن عمر والأخفش الكبير ويونس بن حبيب، واختص بالخليل بن أحمد، وأخذ منه كل ما عنده في الدراسات النحوية والصرفية، مستمليا ومدونا، واتبع في ذلك طريقتين: طريقة الاستملاء العادية، وطريقة السؤال والاستفسار، مع كتابة كل إجابة وكل رأي يدلى به وكل شاهد يرويه عن العرب، وبذلك احتفظ بكل نظراته النحوية والصرفية 2 . " .

1- انظر: المرجع السابق.ص254

2- المدارس النحوية أسطورة وواقع - د. إبراهيم السامرائي - ص39

ولم تذكر كتب التراجم أنه رحل إلى البادية في طلب اللغة والسماع عن العرب ومشافهتهم، غير أن ما يتردد في كتابه من مثل قوله" :سمعنا بعض العرب يقول وسمعنا العرب تنشد هذا الشعر وسمعنا من العرب وهو "كثير في جميع لغات العرب وعربي كثير وعربي جيد وقد سمعناهم وقال قوم من العرب ترضى عربيتهم

وسمعنا من العرب من يوثق بعربيته يدل -في رأينا- على أنه رحل إلى بوادي نجد والحجاز مثل أستاذه الخليل .والكتاب يفيض بسيول من أقوال العرب وأشعارهم، لا يرويها عن شيوخه، وهي بدورها تؤكد، بل تحتِّم, أنه رحل إلى ينابيع اللغة والنحو يستمد منها مادة وعتادا فصيحا صحيحا بشاراته في النطق وهيئاته . ولما توفي الخليل خلفه -على ما يظهر- في حلقته، إذ نجد كتب طبقات النحاة تنص على طائفة من تلاميذه مثل الأخفش الأوسط وقطرب، وأكبّ حينئذ على تصنيف الكتاب، وسرعان ما أخذ نجمه يتألق لا في البصرة دار النحو فحسب، بل أيضا في بغداد، ورحل إليها طامحا إلى الشهرة في حاضرة الدولة، وحدث أن التقى بالكسائي مقرئ الكوفة ومؤدب الأمين بن الرشيد

وكان ذلك في دار يحيى البرمكي، وقيل: بل في دار الرشيد، ويقال: إنه لقيه قبل الكسائي بعض أصحابه : الأحمر وهشام والفراء ليوهنوا منه، ولم يلبث صاحبهم أن تعرض له بالسؤال في المسألة الزنبورية، إذ قال له: كيف تقول" :قد كنت أظن أن العقرب أشدُّ لسعةً من الزنبور، فإذا هو هي أو فإذا هو إياها؟ "فقال سيبويه: فإذا هو هي، ولا يجوز النصب. قال الكسائي: لحنت، العرب ترفع ذلك كله وتنصبه.

فدفع سيبويه قوله، وطال بينهما الجدال، وكان بالباب نفر من عرب الحطمة النازلين ببغداد، ممن ليسوا في درجة عالية من الفصاحة، فطلب الكسائي سؤالهم، ولما سُئلوا تابعوه في رأيه، فانكسر سيبويه كما يقول الرواة، وإن كنا نتهم قولهم؛ لأن الحق كان في جانبه؛ لما يقتضيه القياس في هذا الموضع، ولأنه يطرد الرفع فيه في آي الذكر الحكيم من مثل} :وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ} ,{فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ} , {فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ {وكأنها هي وما بعدها مبتدأ وخبر. 1

أما النصب فيكون على الحالية وتوجيهه ضعيف. وكان سيبويه ونحاة البصرة يهدرون ما يجري على لسان عرب الحُطَمة لما دخل على سلائقهم من ضعف بسبب إقامتهم في الحاضرة، بل لقد كانوا يهدرون ما جاء على ألسنة بعض البدو من لغات شاذة لا تجري مع القياس المستنبط من كثرة ما يدور على ألسنة الفصحاء كالجر بلعل والجزم بلن. ولا بد أن سيبويه شرح ذلك في حواره ومناظرته مع الكسائي، وإن كان الرواة للحادثة لم يدونوه. ويقال: إن يحيى البرمكي أجازه بعشرة آلاف درهم. ويظهر أنه لم تطب له الإقامة ببغداد فولى وجهه نحو موطنه، غير أن الموت عاجله في شيراز، وقيل: في همذان أو ساوة، واختلف الرواة في تاريخ وفاته، والأرجح أنه توفي سنة 180 للهجرة.

---

1 انظر: المدارس النحوية أسطورة وواقع - د. إبراهيم السامرائي - ص31

وواضح من كل ما قدمنا أن الخليل يعد بحق واضع النحو العربي في صورته المركبة، سواء من حيث عوامله ومعمولاته الظاهرة والمقدرة, أ :و من حيث ما يجري فيه من شواهد ومن علل وأقيسة، ونص على العبارات المهملة والأخرى الشاذة وإحداث ما سرى فيه من تمارين غير عملية يقصد بها إلى التمرين والتدريب، ومد ذلك في علم الصرف والفقه بأبنية الكَلِم واشتقاقاتها وتصريفاتها وصورها الممدودة والمقصورة والممالة والمصغرة والمنسوبة وما يداخلها من قلب وإعلال .

الأخفش

هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة، فارسي الأصل مثل سيبويه، وقد لزمه وتتلمذ له، وأخذ عنه كل ما عنده، وهو الذي روى عنه كتابه، بل كان الطريق الوحيدة إليه، إذ لا يعرف أحد سواه قرأه على سيبويه أو قرأه سيبويه عليه، ويروى عنه أنه كان يقول" :كنت أسأل سيبويه عما أشكل عليَّ منه, فإن تصعَّب الشيء منه قرأته عليه . "وقد جلس بعده للطلاب يمليه ويشرحه ويبينه، وعنه أخذه تلاميذه البصريون من مثل الجرمي والمازني، وأخذه عنه علماء الكوفة وعلى رأسهم إمامهم الكسائي.

ولما رأى اهتمام تلاميذه الكوفيين جميعا بالمسائل المتفرقة في النحو والصرف صنع لهم كتاب المسائل الكبير، وله وراءه كتب أخرى سقطت من يد الزمن مثل كتاب الأوسط في النحو وكتاب المقاييس وكتاب الاشتقاق وكتاب المسائل الصغير.

وكان يعنى بشرح الأشعار، وله فيها كتاب معاني الشعر، ويقال: إنه أول من أملى غريب كل بيت من الشعر تحته. وله في العروض والقوافي كتاب نوه به القدماء، ويقال: إنه زاد فيه على الخليل بحر المتدارك أو الخبب، ويظهر أنه إنما زاد اسمه فقط إذ نجد للخليل أشعارا على وزنه. ويقول الجاحظ: إنه كان ينشر في مصنفاته ضربا من الغموض والعسر، حتى يلتمس منه الناس تفسيرها رغبة في التكسب بها. وقد ترك البصرة إلى بغداد بأخرة من عمره. وما زال الطلاب يقبلون من كل حدب على دروسه وإملاءاته حتى توفي سنة 211 للهجرة 1

وهو أكبر أئمة النحو البصريين بعد سيبويه، وهو الذي فتح أبواب الخلاف عليه، بل هو الذي أعد لتنشأ، فيما بعد، مدرسة الكوفة ثم المدارس المتأخرة المختلفة، فإنه كان عالما بلغات العرب، وكان ثاقب الذهن حاد الذكاء، فخالف أستاذه سيبويه في كثير من المسائل، وحمل ذلك عنه الكوفيون، ومضوا يتسعون فيه، فتكونت مدرستهم. ولا بد أن نلاحظ منذ الآن أن خلافاته وخلافات المدارس التالية، وكذلك خلافات البصريين التالين له، إنما هي خلافات في بعض الفروع، فإن النحو وأصوله وقواعده الأساسية تكونت نهائيا على يد سيبويه وأستاذه الخليل، وكأنهما لم يتركا للأجيال التالية سوى خلافات فرعية تتسع وتضيق حسب المدارس وحسب النحاة .

1- انظر: الخصائص أبو الفتح عثمان بن جني - ص 15

ويبدو أن الأخفش عني بالحدود والتعريفات أكثر مما عني أستاذه سيبويه. ومن التعريفات التي روتها له كتب النحاة تعريفه الاسم, وكان سيبويه اكتفى بالتمثيل له قائلا" :والاسم رجل وفرس وحائط "أما هو فقال : "الاسم: ما جاز فيه نفعني وضربني "يريد أنه ما جاز أن يُخبَر عنه. وعلى نحو ما عني بالتعريفات عني بالتعليلات، حتى تعليل ما لم يقع في اللغة، من ذلك تعليل امتناع الفعل المضارع من الخفض، وكان سيبويه يعلل لذلك بأن المجرور داخل في المضاف إليه وأنه يعاقب التنوين والمضارع لا ينون.

ونرى الأخفش يتخذ من هذا التعليل موقفين: موقفا يشرحه فيه قائلا" :لا يدخل الأفعال الجر؛ لأنه لا يضاف إلى الفعل، والخفض لا يكون إلا بالإضافة، ولو أضيف إلى الفعل، والفعل لا يخلو من فاعل، وجب أن يقوم الفعل وفاعله مقام التنوين؛ لأن المضاف إليه يقوم مقام التنوين، وهو زيادة في المضاف كما أن التنوين زيادة. فلم يجز أن تقيم الفعل والفاعل مقام التنوين؛ لأن الاسم لا يحتمل زيادتين، 1

ولم يبلغ من قلة التنوين -وهو واحد- أن يقوما مقامه، كما لم يحتمل الاسم الألف واللام مع التنوين ."

والموقف الثاني هو محاولة الإدلاء بعلة جديدة, إذ يقول ":لم يدخل الأفعال جر؛ لأنها أدلة، وليست الأدلة بالشيء الذي تدل عليه. وأما زيد وعمرو وأشباه ذلك فهو الشيء بعينه، وإنما يضاف إلى الشيء بعينه لا إلى ما يدل عليه، وليس يكون جر في شيء من الكلام إلا بالإضافة .وهو يريد أن الفعل دليل على الفاعل والمفعول والحدث. والإضافة إنما تكون إلى هذه الأشياء لا إلى ما دل عليها مما يصور حركات الفاعلين. ويعلل لإضافة اسم الزمان إلى الفعل بقوله ":إنما أُضيفت أسماء الزمان إلى الأفعال؛ لأن الأزمنة كلها ظروف للأفعال والمصادر، والظروف أضعف الأسماء ,فقووها بالإضافة إلى الأفعال

وقلنا آنفا: إنه هو الذي فتح للكوفيين أبواب الخلاف على سيبويه وأستاذه الخليل بما بسط من وجوهه، وقد تابعوه في كثير من هذه الوجوه بحيث يمكن أن يقال بحق: إنه الأستاذ الحقيقي للمدرسة الكوفية، لا لأن إمامها ألكسائي والفراء تتلمذا له فحسب، بل أيضا لأنهما تابعاه في كثير من آرائه التي حاول بها نقض طائفة من آراء سيبويه والخليل، وقد مضيا هما وغيرهما من أعلام النحاة في الكوفة يتخذون من آرائه قَبَسا للاهتداء به فيما نفذوا إليه من آراء أعدت لقيام المدرسة الكوفية. 2

1- انظر: المدارس النحوية أسطورة وواقع - د. إبراهيم السامرائي - ص32.

2- انظر: المرجع السابق.45

المازني

المازني هو بكر بن محمد بن بقيّة، وكان يُكنّى بأبي عثمان وينسب إلى بني مازن الشيبانيين، ولد وترعرع في مدينة البصرة، والتحق منذ نعومة أظافره بحلقات اللغويّين والنحويّين والمتكلمين من علماء البصرة، وكان من أساتذته الأخفش الذي تعلّم على يديّه كتاب سيبويه، وكان الكتاب هو الأساس الذي يبني عليه المازني مذهبه في النحو، وبعد وفاته أصبح المازني العالم الوحيد في البصرة بالنحو والصرف، ومن تلامذته عبد الله بن سعد الورّاق، والمبرّد، وكان المازنيّ إماميّاً لا يناظره أحدٌ إلا وفاز عليه، توفي عام الثالث للهجرة، وكان له مؤلفات عدّة منها: علل النحو، وتفاسير كتاب سيبويه، وكتاب في القرآن الكريم، والتصريف، وما يلحن به العامة، وتصنيف الميداني.1

إلا أنَّه يظلُّ أكثر استقلالاً من صديقه أبي عمر الجرمي، وله آراء خالف فيها سيبويه ورفض شواهده واستدلالاته مثل الإخبار عن «أَلا» ورفض عمل الأوزان «فَعِل» و«فَعِيلا 2 وأخذ المازني النحو عن معمر بن المثنى وأبي زيد الأنصاري والأخفش الأوسط، وأخذ الأدب عن عبد الملك الأصمعي وأبي عبيدة 3 وتعمَّق في النحو حتى ذاع صيته وأصبح واحداً من أشهر علماء ذلك العصر، واستحوذ على النحو البصري وعُدَّ شيخ الطبقة السادسة من نحاة البصرة، وبلغ مبلغاً من العلم حتى قيل: «لم يكن بعد سيبويه أعلم من المازني في النحو ووضعه الجاحظ ضمن ثلاثة نحاة لم ينازعهم أحد في زمنهم إلى جانب العباس بن فرج الرياشي وأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمن الزيادي

ازدادت شهرته وحقَّق نجاحاً كبيراً، وكان الخليفة يُوكِل إليه اختبار العلماء الوافدين، وعلى الرغم من أنَّ الواثق رغَّبَه بالبقاء اعتذر المازني وعاد إلى البصرة ومات هناك في سنة 247 .. 4

كثيراً ما يُقارن المازني بالفقهاء، وأجمع الناس على صدقه وأمانته وعلمه وكان العلماء يأخذون الروايات عنه، وكان هو يرى أنَّ «العلم كُله هو الفقه»، وتمكَّن من علم الكلام، وخاض مناظرات فيه، وقال عنه المبرد الذي أخذ عنه النحو: «إذا ناظر أهل الكلام لم يستعن بشيءٍ من النحو، وإذا ناظر أهل النحو لم يستعن بشيءٍ من الكلام. عُرِفَ المازني بحذقه وذكائه وقدرته الفائقة على النقاش والجدال وتقديم الحجج، ولم يدخل في مناظرة إلا خرج منها منتصراً .

1- انظر: المدارس النحوية أسطورة وواقع - د. إبراهيم السامرائي - ص 34.

2- انظر: معجم الأدباء - ياقوت الحموي الرومي - ج6/ص 2486.

3- انظر: سير أعلام الأدباء - شمس الدين الذهبي - ج8 / ص 483.

4- انظر: معجم الأدباء - ج 4/ ص 1737.

اتفقت كل الروايات على أنّ الذي وضع علم النحو هو أبو الأسود الدؤلي، فهو أو من قام بضبط الكلمات في القرآن الكريم؛ لمنع اللحن والتحريف، فوضع نقطة بلون مختلف عن لون كتابة القرآن فوق الحرف إذا أراد أن يكون مفتوحًا، ووضع النقطة تحت الحرف ليدل على الكسرة، ووضع النقطة عن شمال الحرف إذا كان مضموماً، ووضع نقطتين فوق الحرف أو أسفله أو عن شماله ليدل على التنوين، وليدل على سكون الحرف كان يتركه فارغًا من النقط. بهذا يكون أبو الأسود الدؤلي هو أول من نقّط المصحف بالحركات، أي هم من وضع علم النحو.

هناك من يقول أنّ من وضع علم النحو هو الخليل بن أحمد الفراهيدي، وقيل علي بن أبي طالب، وقيل سيبويه مرّ علم النحو بمراحل متعددة في تكوينه، كان لعلماء العرب على مر العصور الدور الأبرز في الوصول إلى علم النحو كما نراه اليوم عليه من علم متكامل له فروعه.

أطوار النحو العربي

أولًا: مرحلة الوضع والتكوين

أتصفت هذه المرحلة بوجود نوعين من العلماء، النوع الأول أو ما يمكن أن نسميه الجيل الأول من العلماء كانت فترته تتسم بقلة الإنتاج، حيث اعتمدت على رواية المسموع والمحفوظ، وبذلك انعدمت فرصة الاختلاف بين العلماء في المسائل النَحْوِيّة، كما نتج عنها أيضًا انعدام المؤلفات؛ لأنه لم يكن هناك جديد، فكل المتناول مسموع ومنقول. من أشهر علماء هذه المرحلة: عنبسة بن معدان الفيل - عبد الرحمن بن هرمز - نصر بن عاصم الليثي أمّا الجيل الثاني فقد كانوا أكثر نشاطًا وحظًا من سابقتها، فكثرت الأبحاث النحوية، وظهرت القواعد النحوية الجديدة، وأجريت النقاشات بين العلماء، كما بدأت تأليف الكتب التي تمزج بين النحو والصرف واللغة والأدب، كانت هذه الفترة هي فترة النضج، كان ذلك في الفترة العباسية، ومن أبرز علماء هذه الفترة: عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي - عيسى بن عُمر الثقفي.

ثانيًا: مرحلة النمو والنشأة

تميزت هذه المرحلة بوجود تعاون بين علماء البصرة والكوفة، هذا التعاون الذي لعب دورًا كبيرًا في تطوير علم النحو. ركز علماء هذه المرحلة على بناء الكلمة وليس فقط أواخرها؛ لكي يحافظوا عليها من اللحن والتحريف في النطق.استمر العلماء في هذه المرحلة في التقصي والبحث فيما ورثوه من المأثور عن العرب، والتفكير لاستخلاص القواعدمن أشهر علماء هذه المرحلة: سيبويه الذي كان تلميذًا للخليل بن أحمد الفراهيدي.

ثالثًا: مرحلة النضج

تميزت هذه المرحلة بكثرة الإنتاج النحوي، وانتشار النقاشات والآراء، كما اشترك علماء بغداد في هذه المرحلة مع علماء البصرة والكوفة. اتصفت هذه المرحلة بالنضج نتيجة لمواصلة العلماء فيها لخطى من سبقوهم من علماء، وقد اعتمدوا على التفسير والتوضيح والشرح الذي اشتمل على كل التعريفات، وزادت فيه الاصطلاحات.

في هذه المرحلة تم فصل علم النحو عن علم الصرف، وبلغ علم النحو ذروته ووضحت قواعده وزاد العلماء والمؤلفات فيه.من أبرز علماء هذه المرحلة: المازني - أبو عمر الجرمي - أبو حاتم السجستاني - يعقوب بن السكيت ... وغيرهم.

استمرت هذه المرحلة حتى انتهاء القرن الثالث الهجري.

رابعًا: مرحلة الترجيح

بدأت هذه المرحلة بين القرنين الرابع والسادس الهجري، هذه المرحلة هي حصيلة جهد العلماء النحويين في المراحل السابقة لعلم النحو، هدأ الخلاف وقل بين العلماء، وأنشئت المدرسة البغدادية في هذه المرحلة،

بجانب ظهور مدارس نحوية أخرى سميت حسب المكان الذي بدأت فيه يجمع الباحثون قدماء ومحدثون على أن فشوا اللحن واستفحال خطره وتسربه في قراءة القران الكريم والحديث الشريف كان السبب الرئيس في وضع النحو، وسنعرض لطائفة من الأحداث التي تؤكد خطورة اللحن على العربية والتي حفزت العلماء إلى وضع النحو .

يقول بعض الباحثين المحدثين بعد أن استعرض تاريخ ظهور اللحن:) لهذا وذاك أهابت العصبية العربية بالعلماء في الصدر الأول الإسلامي أن يصدوا هذا السيل الجارف الذي كاد يكتسح اللغة العربية بما قذف فيها من لحن تسرب يعد[2]واه في القرآن الكريم والسنة الشريفة، بما هدوا إليه وسموه: علم النحو).1

ويرجح هذا الباحث أن أسباب وضع النحو تعود إلى مجموعة من الحوادث لا إلى حادثة معينه خاصة مستشهدا بمقالة لابن خلدون في هذا الصدد، قال الباحث :

(فالحق الذي لا ينبغي الحياد عنه أن وضع هذا العلم إنما كان لهذه الحوادث متضافرة). قال ابن خلدون :(فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز....وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما القي إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين والسمع أبو الملكات اللسانية، ففسدت بما القي إليها مما يغايرها، لجنوحها إليه باعتياد السمع، وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد

1- انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ونشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة لمحمد الطنطاوي

تلك الملكة رأسا، ويطول العهد بها، فينغلق القران والحديث على المفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام، ويلحقون الأشباه بالأشباه ، مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب ، والمبتدأ مرفوع ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات، فاصطلحوا على تسميته إعرابا، وتسمية الموجب لذلك التغير عاملا ، وأمثال ذلك ، وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو 1

ظهور أبرز المدارس النحوية

المدارس النحوية مصطلحٌ يشير إلى اتجاهاتٍ ظهرت في دراسة النحو العربي، اختلفت في مناهجها في بعض المسائل النحوية الفرعية، وارتبط كلّ اتجاه منها بإقليمٍ عربيٍ معيّن، فكانت هناك مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة، ومدرسة بغداد وهكذا..

كانت كلّ تلك المدارس تسير نحو هدفٍ واحد، ورؤيةٍ واحدة، وهي النحو العربي بثوابت كثيرةٍ ومشتركةٍ فيما بينها، وما كان اختلاف علمائها إلاّ الشيء القليل بفروعٍ صغيرة، أحياناً ما وصلت تلك الاختلافات بالرأي إلى توسعة دائرة الخلاف بين المدارس دون وجود مسبّب أو مبرّر لذلك الخلاف

وبهذا الأمر تميّزت المدرسة النحوية العربية القديمة بمحافظتها على الأصل والثابت وبذلك وحّدت الجهود للوصول إلى الهدف الأسمى وهو خدمة لغة القرآن الكريم.

ومن هنا فارتباط تلك الدراسات القديمة وعلى رأسها المدرسة النحوية بالقرآن الكريم، يجعلها خالدةً إلى قيام الساعة بخلود القرآن الكريم الذي هو عقيدة الأمة الإسلامية، وهو الذي أكسب اللغة العربية الشرف الأسمى لها، وجعل دراستها من العقيدة والاهتمام بها أيضا من العقيدة. ومن هذه المدارس النحوية العربية نذكر ما يلي :

نشأة المدرسة البغدادية

نشأت هذه المدرسة في القرن الرابع هجري، واتبعت نهجًا جديدًا وأساسه الانتخاب بين آراء المدرسة البصرية والكوفية فاستفادوا من علمهم وتعمقوا فيه حتى يخرج لنا آراء نحوية جديدة، ومن أتباع هذه المدرسة: كمال الدين بن الأنباري وأبو محمد سعيد بن الدهان وعلي بن عيسى الربعي 2

1- انظر: سير أعلام النبلاء - ج 10 / ص121.

2- انظر: الفهرست لابن للنديم - أبو فرج بن أبي يعقوب المعروف بالوراق - ج 1/ص.255

ازدهر النشاط المدرسة أواخر القرن الثالث، وما كاد القرن الرابع يبدأ حتى أخذت مدرسة بغداد تتميز بمنهجها الخاص.

ولم يكن هذا المنهج جديداً من حيث الأسس أو طرائق الاستنتاج، ولكنه منهج ينبني على الانتقاء من المدرستين البصرية والكوفية، ومن ثم رأينا الرواد الأول لمدرسة بغداد يقبلون على الكوفة ويزيدون من الأخذ عنها لكنهم يأخذون عن البصرة.

وفي الاتجاه الثاني كان عدد آخر من العلماء يقبلون على البصرة ويأخذون عن الكوفة لكن ميلهم الى البصرة أشد، وأشهر هؤلاء الزجاجي وأبو علي الفارسي وأبو الفتح عثمان بن جني. ويعتبر أبو علي وتلميذه ابن جني مثالا عجيباً على التلمذة والصحبة والنشاط العالية في الدرس اللغوي ، كما أن أعمال ابن جني على وجه الخصوص تمثل تقدماً كبيراً جداً في المنهج وفي الأسلوب وفيما وصل إليه من نتائج بحيث إن كثيراً جداً مما قرره هذا العالم الكبير منذ ألف عام قد وجد قبولاً من أحدث مناهج الدرس اللغوي وبعد هذين العالمين بدأ العلماء يتتابعون ـ في بغداد ـ 1

واحداً في إثر واحد، مع اتجاه اقوى الى مدرسة البصرة، نذكر لك منهم الزمخشري وابن الشجري وأبا البركات الأنبا ري وأبا البقاء العكبري وابن يعيش والرضي.

نشأة المدرسة الأندلسية

اهتم الأندلسيون في النحو الكوفي ثم أقبلوا على النحو البصري، فكان "كتاب "سيبويه له أهمية وعناية من حيث الدراسة والحفظ والشرح والتعليق، اتبع الأندلسيون أسلوب البغداديين في مبدأ الاختيار من آراء نحاة الكوفة والبصرة، إلا أنهم أضافوا إلى ذلك من بعض آراء البغداديين، وتحديدًا آراء أبي علي الفارسي وابن جني .لم يتوقفوا عند ذلك بل ساروا في اتجاههم من حيث كثرة التعديلات والآراء الجديدة ما عدا ابن مضاء القرطبي، كما أضافوا ما استنتجوه بأنفسهم، ومن أهم النحاة الأندلسيين محمد بن يحيى الرباحي وأبوبكر محمد الزبيدي صاحب كتاب "طبقات السيد البطليوسي" وابن الطراوة وابن مضاء القرطبي وابن خروف، وابن هشام الخضراوي وابن عصفور، وابن مالك صاحب الألفية المشهورة التي ظلت مهيمنة على مناهج التدريس النحوي حتى وقتنا الحاضر.

نشأة المدرسة المصرية

هي ثالث وآخر المدارس النحوية مقارنةً بالمدرستين الأوليتين وهما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة .نشأت هذه المدرسة النحوية في مصر بعد مدرستي البصرة والكوفة وقد أخذَ علماؤها عن نحاة البصرة والكوفة واجتهدوا في بعض الفروع

1- انظر: النحو الوافي لعباس حسن ص232.

والأمور التي لا تعدّ من أساسيَّات وركائز النحو. يرى البعض أن تأسسها الفعلي أتى مع أن سقوط قرطبة، وانتقال السكانُ العرب مِن هناك إلى مصر والشام والمغرب والجزائر وتونس، فأصبحت مصر والشام ملجأ ومزكر العلماء. ازدهرَت هذه المدرسة في الدولة المملوكية، وبسبب حكم المماليك لمصر والشام سُميَت المصرية الشامية، ولأن عاصمة المماليك كانت قاهرة المعز في مصر، فتركز نتاج المدرسة في مصر، فسُميَت كذلك بالمصرية دون الشامية، ولكن بصورة عامة فقد بدأت آراء بسيطة لهذه المدرسة النحوية بالظهور في حوالي القرن الرابع الهجري تضم هذه المدرسة الدراسات النَّحوية في مصر والشام، وقد تأسست هذه المدرسة بعد أن زالت اندثرت العرب في الأندلس، واحتل الفرنجة غرناطة، وانتقل السكانُ العرب مِن هناك إلى مصر والشام، ومِن بين أبرز نُحاة هذه المدرسة: أبوجعفر النحَّاس، علي بن الحسن وبن عسلان وأبو زهرة بن فزارة النَّحوي فبذلوا مجهودات كبيرة في إحياء صرح علم النحو.1

نشأة المدرسة الكوفية

أخذت المدرسة الكوفية الروايات عن جميع العرب، بدواً وحضراً واستندوا إلى أقوال الشعراء المتحضرين من العرب أي الذين سكنوا حواضر العراق، كما اعتمدوا الأشعار والأقوال الشاذة التي سمعوها من الفصحاء العرب، ومن أتباع هذه المدرسة: أبو جعفر الرؤاسي ومعاذ بن مسلم الهراء ومحمد بن عبدالرحمن بن

محيض. تتميز هذه المدرسة في طابع الاتساع في الرواية وطابع الاتساع في القياس أي أنه يمكن أن يقاس على الشاذ، ثم طابع المخالفة في بعض المصطلحات النحوية وما يتصل بها من العوامل.

الحمدُ لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومَن تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعدُ: فإنَّ الله جلَّ وعلا قد حفظ اللغة العربية بحِفْظ كتابه العظيم، فقال تعالى :﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾]يوسف: 2]، وقال :﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾]الزمر: 28]، وقال :﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾]الزخرف: 3]، وغيرها مِن الآيات البينات التي تدل على عِظَم هذه اللغة الخالدة المحفوفة برعاية الله وعنايته. وأكمل رسولنا الأعظم صلى الله عليه وسلم طريقَ هذا الحفظ بالعناية والاهتمام باللغة وتحصينها، فقد كان أفصح العرب قاطبةً، وأبلغهم وأجمعهم لضروب اللهجات والألسنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: اللسانُ العربي شعارُ الإسلام وأهله 2، وقد شَمَّر الكثير من العلماء للتصدي لحفظ

1- انظر: المرجع نفسه لعباس حسن ص 345.

2- انظر: معجم الأدباء - ج 2 - ص 536 - و الفهرست - ص 80.

هذه اللغة العظيمة، فجعلوا لها قواعدَ ومبادئ وأسسًا ومنهجًا، لتسلم مِن أيدي العبث والزيف والتحريف، فكانوا في مضمار سَبْق وتنافس وريادة.ومِن هؤلاء الذين برزوا في هذا المجال: المدارس النحوية العريقة، المُمُثَّلة في علمائها وأعلامها، ومنها مدرسة الكوفة في عراقنا الحبيب، التي قامتْ منافسة لمدرسة البصرة، فنالتْ ما نالتْ مِن حسنات واجتهادات تُثاب عليها.وسأشير إلى ذلك مِن خلال هذه المقالة بعون الله تعالى، أسأله الهدى والسداد والتوفيق والرشاد إنه سميع مجيب.

المدرسة البصرية

تأسست في مدينة البصرة في العراق خلال فترة الخلافة العباسية، وتعد تطورا لعلم الخليل بن أحمد الفراهيدي والذي تابع فيه تلميذه سيبويه ثم انضم إلى نحوي آخر من أجل إحياء علم أستاذه الخليل تأسست أول مدرسة نحوية وقد ترأسها سيبويه نفسه، ومن كتبه "الكتاب" وهو الأساس الأوَّلُ في النحوِ قديمًا وحديثًا، ومن أتباع هذه المدرسة: الأخفش الأوسط وهو تلميذُ سيبويه ومن كتبه "المسائل الكبير"، ومنهم أيضًا المبرد والزجَّاج والسيرافي وغيرهم، ومن الجدير بالذكر أن هذه المدرسة تشددت في رواية الأشعار والأمثال والخطب ووضعوا شروط دقيقة في الشواهد التي يتم اعتمادها في وضع القواعد. 1درج الباحثون المحدثون على إطلاق كلمة "مدرسة" على الاتجاهات النحوية العربية القديمة، واللفظة ذاتها لم تكن مستعملة لدى القدماء، وإنما كانوا يستخدمون "المذهب" أو ما أشبهها.

ومهما يكن من خلاف بين الدارسين في وجود "مدارس نحوية".. فإنه لا يستطيع أحد أن ينكر وجود اتجاهين نحويين كبيرين ممتازين وُجد أحدهما في البصرة والآخر في الكوفة، ويكاد ينعقد الإجماع على إطلاق كلمة "مدرسة" على كل منهما.

أما مدرسة البصرة فهي التي يُعزى إليها وضع النحو العربي، وتأصيل مناهجه، وذلك على أيدي أعلامها الكبار؛ عبد الله بن أبي إسحق (ت 117هـ)، والخليل(ت175هـ)، وسيبويه (ت 180هـ). وقد سيطر الاتجاه البصري على مجرى النحو العربي في الأغلب الأعم منذ النشأة إلى عصرنا الحاضر حتى إنه يصح أن يُقال إن النحو العربي في تاريخه الطويل نحو بصري 2

الخصائص العامة:

-1كانت الخطوة الأساسية في المنهج البصري تحديده المادة اللغوية التي تستنبط منها القوانين تحديدا زمانيا ومكانيا؛ فلم يقبل نحاة البصرة لغة الحضر إلا إلى منتصف القرن الثاني، ولغة البادية إلا إلى نهاية القرن الرابع. وكان الهدف من ذلك الاقتصار على اللغة "النقية" التي لم تتعرض للاختلاط.

1- انظر: المدارس النحوية - شوقي ضيف - ص161.

2- انظر: المرجع السابق.ص 176

-2استعمل البصريون "القياس" اللغوي الذي يعني "استقراء" الشائع في اللغة، واستخلاص القواعد منه، وطرح النادر والتعليل ووصفه بالشذوذ.وقد أصبح "القياس" سمة عامة على البصرة في مقابل "السماع" الذي اشتهر عن الكوفة.

-3وضع نحاة البصرة أهم دعامة فكرية في النحو العربي، وهي التي تتمثل في نظرية "العامل" النحوي مما أفضى إلى تفرعات منهجية أساسية؛ من أهمها "التأويل" و"التقرير". وقد وجه اللغويون المحدثون نقدا عنيفا إلى "العامل"، ثم ظهر قبول قوي للفكرة في النحو التوليدي، وأصبحت تمثل أداة ضرورية في التفسير اللغوي.

-4من ذلك كله يمكن أن يُقال إن مدرسة البصرة مدرسة "عقلية" لم تنظر إلى اللغة باعتبارها أداءً ظاهراً فحسب، بل هي وسيلة اتصال لها "عمق" لابد من معرفته وتحديده. ويرى كثير من الباحثين أن الطبيعة "العقلية" لمدرسة البصرة ترجع إلى بيئة هذه المدينة التي كانت ميناء العراق على الخليج مما جعلها على صلة وثيقة بالتيارات الثقافية القديمة من فارسية وهندية ويونانية، وأن اتصالها بالفلسفة اليونانية كان لها الأثر الأكبر في هذا الاتجاه 1.

قدم أعلام البصرة النصيب الأوفى من التأليف النحوي، ولا تكاد الكوفة تذكر في هذا المجال؛ بل لعل التأليف النحوي في مجمله تأليف بصري، ويكفي أن نذكر "كتاب" سيبويه الذي سيطر على النحو العربي كله حتى ندرك هذه الحقيقة.

وحين يدور الآن نقاش عن النحو العربي، أو حين تجري مقارنات بينه وبين العلوم اللغوية الحديثة فإن ذلك كله يدور تحت مظلة المدرسة البصرية..

مذهب البصرة

لقد كان من حسن الحظ للنحو أن كانت البصرة مولده ومهده لأنها اختصت بما حرمته الكوفة التي ناهضتها بعد ذلك للأمور التالية:

أولا: أن العرب النازحين إليها من القبائل العريقة في اللغة الفصحى استطابوها فاتخذوها دراهم وأكثرهم من قيس وتميم الذين بقوا على عربيتهم.

ثانيا: أنه كان على كثب منهم "المِرْبَدُ" الذي قد اتخذه العرب سوقا في الجهة الغربية منها مما يلي البادية بينه وبينها نحو ثلاثة أميال، يقضون فيه شئونهم قبل أن يدخلوا الحضر أو يخرجوا منه، وقد صارت هذه السوق في الإسلام صورة موازنة لعكاظ الجاهلية، فكانت فيه النوادي الأدبية والمجامع الثقافية تألفت فيه حلقات الإنشاد والمفاخرة والمنافرة والمعاظمة ومجالس العلم والأدب، فكان الشعراء يؤمونه ومعهم رواتهم، وكانت لفحولهم حلقات خاصة فيه، قال

1- انظر: المدارس النحوية - شوقي ضيف - ص165 /166

الأصفهاني: "وكان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة يجلسون فيها. 1

كما كان العلماء والأدباء والأشراف ينزلون فيه للمذاكرة والرواية والوقوف على ملح الأخبار، واللغويون يأخذون عن أهله ويدونون ما يسمعون، والنحويون يسمعون فيه ما يصحح قواعدهم ويؤيد مذاهبهم، وكثيرا ما نجد التنويه عنه في تراجم النحاة واللغويين.

ثالثا: موقعها الجغرافي فإنها على طرف البادية مما يلى العراق وأدنى المدن إلى العرب الأقحاح الذين لم تلوث لغتهم بعامية الأمصار فعلى مقربة منها بوادي نجد غربا والبحرين جنوبا، والأعراب تفد إليهم منهما ومن داخل الجزيرة العربية بكثرة، وكل أولئك يسر لعلماء البصرة حينما قاموا بتدوين القواعد أن يجدوا طلبتهم وينالوا رغبتهم، ففي هذه الثلاثة مدد من اللسان العربي الفصيح لا ينفدوهم في بصرتهم مقيمون لا يتجشمون بعدئذ أسفارا ولا يجربون قفارا، إذ لم تشتد الحاجة أولا للرحلة في مدى الطبقتين الأوليين من طبقاتهم. لأنهم لما يبلغوا الغاية في تجريد القياس وتعليل النحو وتفريعه ولم تضطرب الروايات في هذا الحين، ومادة اللغة قوية.

ولا ريب أن نشوء النحو بالبصرة إنما كان تلبية لداعي المحافظة على صيانة اللغة العربية مما نزل بها منذرا بالخطر المدلهم الذي لو ترك وشأنه لدرجت كما درج غيرها من اللغات، كما كان واجبا على من دخل في الإسلام من غير أبناء العرب أن يتعلمه ليتعرف لغة القوم الذين صار منهم حتى يتم الاندماج بينهما وتستحكم أواصر الوحدة فيها. 2

والفضل في ذلك راجع إلى أبي الأسود الذي توطنها مع تشيعه للعلويين ومناوأة البصريين للعلويين وشيعتهم، إلا أن سلطان هذا العلم استرعاهم فأقبلوا إليه يزفون، وتحلقوا حوله وتدارسوا مسائله حبا في المعرفة لذات المعرفة ورغبة في العلم لذاته غير طامعين في مغنم أو حريصين على شيء من حطام الدنيا، وأغلبهم من الموالي الذين سعد بهم هذا العلم منذ بزغ فجره لأنهم من أمم مرنت على مزاولة العلوم والفنون بحسب لغاتها، فشدوا عضد أبي الأسود في التدوين وكانوا له خير معين.

كان لتعاون تلك البيئة التي تموج بمختلف العرب الذين يمثلون أغلب القبائل المعترف بينهم بسلامة سلائقها كما كانت تعج بالرواة والحفظة والنقدة، وهذا الداعي العلمي الخالص الأثر الطيب في سلوك البصريين في قواعدهم، ونمطهم العلمي، فحولهم الأساليب العربية متوافرة تجود لهم بشواهد القواعد دون مجهود يلحقهم، ولا منافس لهم يستعجلهم ويقطع عليهم سلسلة الاستقراء حتى يثقوا بما يدونون متئدين مطمئنين إلا شيئا واحدا، وذلك هو منادي العلم المحض،

1- انظر: النحو الوافي لعباس حسن ص 375.

2 التحفة السنية بشرح المقدمة الآجرومية - محمد محي الدين عبد الحميد - دار الفجر دمشق.ص133

فكان لزاما لذلك أنه لم تدون قواعدهم إلا مدعومة على عناصر ثلاثة:

1- سلامة من أخذوا عنه من العرب المقطوع بعراقتهم في العروبة وصونهم فطرهم من تسرب الوهن إليها من رطانة الحضارة حتى لم يأخذوا إلا عن سكان البوادي، بل كانوا يتحرزون عنهم إذا لمحوا عليهم ضعفا اعتراهم، فكانوا يختبرونهم أحيانا قبل التقبل لما يروون عنهم، قال ابن جني: "ومن ذلك ما يحكى أن أبا عمرو استضعف فصاحة أبي خيرة لما سأله فقال: كيف تقول استأصل الله عرقاتهم؟ ففتح أبو خيرة التاء فقال له أبو عمرو: هيهات أبا خيرة لان جلدك 1

2- الثقة برواية ما سمعوه عنهم من طريق الحفظة والأثبات الذين بذلوا النفس والنفيس في نقل المرويات عن قائليها معزوة إليهم.

3- الكثرة الفياضة من هذا المسموع التي تخول لهم القطع بنظائره وتسلمهم إلى الاطمئنان عليه في نوط القواعد به، وإلا اعتبروه مرويا يحفظ ولا يقاس عليه إلا إذا لم يرد من نوعه ما يخالفه، فلا بأس من اعتباره مبنى للتقعيد عليه.

تلك حالة السابقين منهم وهم بذلك خطوا الخطة التي ترسمها خلفهم بعدهم عندما حانت المنافسة بين البلدين، وأخذت الكوفة تنحاز لنفسها وتهيئ لها طريقا آخر، بل زاد عندئذ البصريون نشاطا ومثابرة على السير في منهاجهم، ودخل إلى الطباع الفساد وخلص شيء من ذلك إلى الأجيال الناشئة في الحضر فاختلف المصران بعضهما عن بعض وتمكنت منهما العصبية، وأخذ كل في الطعن على الآخر.كل ذلك حمل كثيرا من البصريين على التطواف في الجزيرة العربية ولم يقنعهم ما بين ظهرانيهم فارتحل من رجال الطبقة الثالثة

الخليل ويونس وغيرهما، ومن الرابعة أبو زيد وأبو عبيدة والأصمعي، وأخذوا عن القبائل، وإن توافر على الأصمعي ميله إلى غير النحو والصرف من علوم اللغة العربية. 2

فأخذوا عن القبائل البعيدة من أطراف الجزيرة والباقية في سرتها من جفاة الأعراب وأهل الطبائع المتوقحة، وتحاموا سكان الأطراف الحضريين المخالطين لغير العرب، وربما كان أوفى كتاب استقرأ القبائل من الصنفين كتاب الألفاظ والحروف للفارابي، وقد نقل كلامه بنصه السيوطي في المزهر (النوع التاسع الفصل الثاني في معرفة الفصيح من العرب).

فأجهد هؤلاء العلماء أنفسهم وشرقوا وغربوا وتحملوا ذلك الشهور والأعوام وما بالوا ما نالهم من نصب أو مخمصة تفانيا في التثبت بأنفسهم من سلامة ما يروون عن العرب، فشافهوهم في أوديتهم وسمعوا منهم في أخبيتهم ومراعيهم وأسواقهم ومجتمعاتهم، وقدموا للعلم خدمة جلى ويدا لا تنسى.

1جامع الدروس العربية - مصطفى الغلاييني - المكتبة العصرية - صيدا بيروت ط39.

2 - المرجع السابق ص 211

وما زالت الرحلة إلى الجزيرة العربية سنة متبعة عند العلماء إلى أواسط القرن الرابع ثم فسدت سلائق العرب فيه، فاكتفى العلماء بآثار أسلافهم التي حوتها الكتب، وانما كان العلماء بعد ذلك يسألون بعض الأعراب المتوسمين بشيء من جفاء البادية ممن لم تنسخ فيهم الفطرة نسخا ليستريحوا إلى ذلك لا ليأخذوا به، وهذا بالنسبة إلى البادية، أما الحضر فضعفت الثقة بشعرائه من منتصف القرن الثاني تقريبا.

بالغ البصريون في التحري والتنقيب عن الشواهد السليمة، وأبلوا في ذلك ما شهد لهم به الدهر، فتجافوا عن كل شاهد منحول ومفتعل، وآية ذلك أول كتاب لهم، وهو كتاب سيبويه، وقد اعترفت له شهادة العلماء من شيوخه وأترابه والذين بعده، فكانت أقيستهم وقواعدهم قريبة الصحة لكفالة مقدمتها بسلامتها، فلا غرابة بعدئذ أن جعلوها الحكم بينهم يرد من الكلام غير مكترثين بما جاء مخالفا لها مما لا ظهير له ولا مثيل في كثرة الاستعمال والتداول. 1

مذهب الكوفة:

لقد عرفت أن الكوفيين تأخروا عن البصريين في هذا العلم حقبة طويلة، وذلك لانصرافهم أولا عن التلقي عنهم ربا بأنفسهم عن الأخذ منهم، وما لبثوا أن شغلهم الشعر ورواياته والأدب وطرائفه، فاستأثروا بهذا وتنفلوا به على البصريين مدة طويلة لم يشاركوا فيها البصريين النظر إلى علم النحو.

تنبه الكوفيون بعدئذ وصحوا من سباتهم وأرادوا مساهمة البصريين فيه بعد أن عرفوه منهم وشق عليهم أن تنماع شخصيتهم في البصريين إن لم يكن لهم نحو خاص وبينهما ما بينهما من دواغل وإحن، دعاهم ذلك إلى تنظيم نحوهم على نمط خاص لا ينتحون فيه اتجاه البصريين، ولديهم في معتقدهم من الوسائل ما يهيئ لهم نيل مأمولهم، فاستمعوا من الأعراب الثاوين بالكوفة، وقد كانوا أقل عددا وأضعف فصاحة ممن كانوا بالبصرة وإن كان منهم لفيف من بني أسد وغيرهم إلا أن أغلبهم اليمانيون،

وأهل اليمن في عين أهل التمحيص ممن لا يستند إليهم، لخلاطهم الحبشة والهند والتجار الذين يفدون إليهم من مختلف الأمصار، ولم تقم سوق "الكناسة" بالكوفة التي كانوا يرتفقون منها حاجتهم مقام "المريد" بالبصرة مهبط الشعراء والخطباء من العرب المياسير، والأعراب العقف المنتجعين للأرزاق.

هذا مع قصوهم عن جزيرة العرب ينبوع معين هذا العلم، وحيلولة صحراء السماوة بينهم وبينها، فلم تكن لهم فيها إلا رحلات قليلة لبعد الشقة وثقل المؤونة كرحلة الكسائي المعروفة، وهو زعيم طبقتهم الثانية التي تحاذي الرابعة البصرية،

1سير أعلام الأدباء - شمس الدين الذهبي - مؤسسة الرسالة - ط3. ص321

أما طبقتهم الأولى فلم تكن لها رحلات، على حين أن الطبقة الثالثة البصرية التي تقابلها أبلت في الرحلات بلاء حسنا عاد

على اللغة العربية بالأثر الذي لا يبلى.1

على أنه لم يقف ذلك دون رواج الشعر فيما بينهم، والشعر على كل حال ذو النصيب الأوفى في تدوين القواعد بعد كتاب الله تعالى وسنة رسوله لتماسكه ومصايرته لأحداث الزمان بل قد فاقوا البصريين في علمه بفضل الأوراق المطمورة من عهد النعمان بن المنذر، نقل ابن جني في حماد الراوية الكوفي "قال: أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في الطنوج "الكراريس" ثم دفنها في قصره الأبيض فلما كان المختار بن أبي عبيد الثقفي قيل له: إن تحت القصر كنزا فاحتفره، فأخرج تلك الأشعار، فمن ثم أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة".2

ولقد كانوا قبل العثور على هذه الأوراق مسوقين إلى الشعر عن رغبة ملحة وغريزة فيهم متأصلة منذ حل العرب الكوفة، يؤيد ذلك أن عليا كرم الله وجهه لما رجع بهم من قتال الخوارج، على أن يستعدوا لقتال أهل الشام, ثم تخاذلوا عنه، لم ير أبلغ في ذمهم من صفة التشاغل بالشعر، فقال في خطبته حين خطبهم: "إذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم حلقا عزين تضربون الأمثال وتناشدون الأشعار تربت أيديكم وقد نسيتم الحرب واستعدادها وأصبحت قلوبكم فارغة من ذكرها وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل".

إن العثور على الأوراق السالفة الذكر صادف هوى من نفوسهم فازدادوا بها إقبالا على الشعر، وزخر بحره عندهم وقذف فيه بالملح والطرف إلا أن النحل والافتعال طغيا عليه، حتى التبس الأمر على الناس، وأسند القول إلى غير قائله، قال أبو الطيب: "الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله، وذلك بين في دواوينه. 42

حقا لقد كان ذلك، إذ كان من رواتهم حماد المذكور الذي جر عليهم التلبيس في المرويات والازدياد عليها مختلقاته، وقد كان ضليعا في الشعر وآداب العرب إلا أنه رقيق الأمانة، قال فيه المفضل الكوفي: "قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدا، فقيل له وكيف ذلك أيخطئ في روايته أم يلحن؟ ولكنه

رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل عنه ذلك في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك؟ 3

---

1 الفهرست لابن للنديم - أبو فرج بن أبي يعقوب المعروف بالوراق، تحقيق رضا.

2 -قواعد اللغة العربية -حفني ناصف ومحمد دياب ومصطفى طموم ومحمود عمر وسلطان محمد- مطبعة الشام - ط1. ص323

3 المدارس النحوية - شوقي ضيف - دار المعارف - القاهرة - ط7. ص143

غثا على إبالة فقد كان كذلك مضرب المثل في محاكاته من ينسب إليهم الشعر، روى عنه الكوفيون كثيرا من الشعر "وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لأنه قد أكثر الأخذ عنه وبلغ مبلغا لم يقاربه حماد، فلما نسك خرج إلى أهل الكوفة فعرفهم الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس، فقالوا له أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة فبقي ذلك في دواوينهم إلى اليوم . 1

ومع أنه بصري فلم يعرف عنه أنه لبس على البصريين وروى لهم شعرا منحولا وربما كان منشأ ذلك العصبية البلدية التي تملي على المتأثر بها ارتكاب ما لا يجمل في المسائل العلمية، وقيل: إنه فعل ذلك انتقاما لنفسه إذ ذهب إلى الكوفيين أولا للتلقي عنهم فبخلوا عليه بشعرهم قال أبو زيد: "حدثني خلف الأحمر قال: أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فبخلوا علي به، فكنت أعطيهم المنحول وآخذ عنهم الصحيح، ثم مرضت فقلت لهم: ويلكم أنا تائب إلى الله. هذا الشعر لي، فلم يقبلوا مني، فبقي منسوبا إلى العرب لهذا السبب"2

إن المصادفة التي جمعت بين هذين الوضاعين لكفيلة بتوريث الكوفيين توهينا لمذهبهم فليس في الرواة جميعا على كثرتهم ومحاولة بعضهم الصنع من يداني حمادا وخلفا، فهما طبقة في التاريخ كله يعرف ذلك من له إلمام بالأدب.

أبصر ذلك البصريون فصدفوا عن شواهد الكوفيين واطرحوها ظهريا ولم يسمع عنهم إلا ما وقع من أبي زيد البصري الذي نقل عن المفضل الضبي الكوفي لأنه غير متأثر بالعصبية البلدية وقر عنده صدقه، قال السيرافي: "ولا نعلم أحدا من علماء البصريين بالنحو واللغة أخذ عن أهل الكوفة شيئا من علم العرب .

من ذلك كله ترى أنه لم تتهيأ لهم بيئة تصلح أن تكون منبعا لنمير هذا الفن كبيئة البصريين بمن فيها وفي أرباضها2 وما دنا منها من العرب الخلص، يضاف إلى هذا ما استفزهم للعمل حثيثا في إبراز فن لهم يضارع الفن البصري غيرة منهم وحنقا على البصريين، فأصاخوا إلى كل مسموع لهم وقاسوا عليه فعثرت بهم عجلة الرأي، ولم يدققوا تدقيق البصريين بل تدرجوا مطاوعة لمناديهم إلى الاكتفاء بالشاهد الواحد ولو خالف الأصل المعروف المتفق عليه بين الفريقين، قال الأندلسي: "الكوفيون لو سمعوا بيتا واحدا فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلا وبوبوا عليه بخلاف البصريين".

الاختلاف بين البصريين والكوفيين

إقليم العراق العربي من أسبق الأقاليم مدنية وعمرانا لخصب تربته ووفرة مياهه واعتدال جوه، تعاقبت عليه أقوام من الأمم من البابليين والأشوريين والفرس، كما انحدر إليه العرب من بكر وربيعة وكانت منهم إمارة المناذرة بالحيرة، ولما

1المدارس النحوية (مدرسة البصرة) - أحمد الفقيه - مقالة. ص77

2المدارس النحوية أسطورة وواقع - د. إبراهيم السامرائي - دار الفكر عمان - ط1. ص59

أشرقت عليه شمس الإسلام في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- أنشأ فيه المسلمون البصرة، ثم الكوفة بعدها بستة أشهر على أصح الروايات، وسرعان ما ازدهر البلدان وتحولت إليهما حضارة بابل والحيرة وهوت إليهما أفئدة من المسلمين وزخرا بالعلماء وتقاسما مدنية العراق، حتى كان إذا قيل العراق فمعناه البصرة والكوفة، وكانوا يطلقون أحيانا عليهما العراقيين 1

ومع أن البلدين يضمهما سياج العراق فقد غرست النزعة السياسية بينهما بذرة الضغن لما هبط علي كرم الله وجهه الكوفة واتخذها مقر خلافته وقدمت أم المؤمنين عائشة البصرة على رأس جيش فيه طلحة والزبير طلبا لثأر عثمان -رضى الله عنه- فكانت موقعة "الجمل" المعروفة بينهما موقعة بين البلدين ولعل السر في مجاوزة الإمام علي البصرة مع أنها على حرف البادية وتكبده مشاق السفر إلى الكوفة مع توغلها في العراق ما عرف عن الكوفة من ميل أهلها إلى الطاعة ديانة دون البصرة التي اشتهر أهلها بالعصيان والشقاق والعصبية، ولكثرة اليمنيين بها المخلصين للهاشميين المصدورين من القرشيين، ومن حين هذه الموقعة اختلف هواهما فالبصرة عثمانية والكوفة علوية، وازداد هذا الاختلاف بتعاقب الأيام.2

جاءت دولة بني أمية فكان ضلعها مع البصرة التي ظاهرتها وناصرتها، والكوفة على تبرم وحنق مستجنين في قلبها بضغط الأمويين عليها، وفي الدولة قسوة ورجالها صرامة، ثم قامت الدولة العباسية على أنقاضها وكان مبدأ ظهورها في الكوفة، فإن أبا العباس السفاح أول خلفائها إنما تمت له البيعة فيها بفضل تشيعها ومظاهرتها للهاشميين، ولقد حفظ العباسيون لها تلك الصنيعة وعطفوا عليها وكافئوها، فانقلب الأمر في البلدين، وعزت الكوفة بعد ذل وأفل نجم البصرة بعد تألق {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} آل عمران: 140.

كل ذلك مما أوسع شقة الخلاف بين البلدين حتى تألب كل على الآخر وقلب له ظهر المجن، وفي كتاب "البلدان" لأبي عبد الله أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه الشيء الكثير مما ترامیا به من الأقوال وتباريا فيه من المفاخرات، نسوق هذا لتعرف متى ولد سبب الاختلاف الذي جرهما إلى تطاول بعضهما على بعض، وحبب إليهما إيثار المخالفة في المسائل العلمية على الموافقة فيها؟ إذ ما بدأت المنافسة العلمية النحوية بينهما إلا بعد أن عملت عوامل الخلاف عملها، ووضعت السدود الحصينة التي تحول دون الوفاق بينهما، وتسلطت الأثرة عليهما. 3

1 معجم الأدباء - ياقوت الحموي الرومي - دار الغرب الإسلامي - تحقيق إحسان عباس ط1 بيروت. ص188

2 المدارس النحوية - شوقي ضيف - ص185 /196.

3 النحو إلى أصول النحو - عبد الله بن سليمان العتيق ص131.

وكان ذلك كما سبق في أول الطور الثاني على عهد الخليل والرؤاسي بعد اجتماعهما أولا في الأخذ عن الطبقة الثانية البصرية، وبعد تكوين هذا الفن ونشوئه في البصرة.

الكتاب لسيبويه، طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، بغية الوعاة للسيوطي، ونشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة لمحمد الطنطاوي مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري، الخصائص لابني جني النحو الوافي لعباس حسن. قصد الوصول إلى نتائج صحيحة وأهداف مرجوة.

الفصل الثاني
االدراسات اللغوية بين الأصالة والمعاصرة

- **تمهيد**
- الدراسات اللغوية بين الأصالة والمعاصرة
- المدرسة البنيوية
- الدراسات اللغوية بين الوصف والتحويل
- **الوظائف النحوية و الدرس اللغوي الحديث**
- **اللغة بين الوصفية والوظيفية**
- عناصر تطبيق المنهج التحويلي

الفصل الثاني االدراسات اللغوية بين الأصالة والمعاصرة

تمهيد

اهتمَّ النحاة العرب على اختلاف مدارسهم بفكرة تحصين اللغة العربية من الانحراف والضياع فأبلوا البلاء الحسن في خدمة اللغة العربية والحفاظ على عذوبتها ورونقها وفصاحة لسانها وكان ذلك بوضع قوانين صارمة في توضيح علاقات التأثير والتأثر داخل البناء التركيبيّ للجملة العربيّة، وليكون الأساس الذي ينطلقون منه لتفسير العديد من الظواهر الإعرابية انطلاقا من المدونة البيئة السمعية النقية؛ مما دفعهم إلى محاولة تفسير وجود الحركات الإعرابية في كُلِّ موضع، وضبط أسبابها ومعرفة النظام الّذي يحكمها، لتكون إحدى القنوات التي تنقل النّحو العربيّ لمرحلة تكوّن علم مُتكامل له من الأسس والضوابط ما يحكمه.

وقسم النحاة العوامل تقسيمات متعددة، اعتماداً على معايير مختلفة، شكل معيار القوة والضعف مسبارا مهما في تقسيماتهم إلى جانب معيار اللفظ والمعنى ومعيار الأصالة والفرعية ويلمح الدارس لهذا المعيار وجود تفاوت في الفكر النحوي بين العوامل وفق هذا المعيار فمنها : القوي ومنها الضعيف ونتج عن الربط بين العامل والقوة بناء مجموعة من الافتراضات في التدرج بين العوامل وتعدد مراتبها قوة وضعفا، مما منح هذا المعيار قدرة على تفسير العديد من العلاقات الإعرابية في النحو العربيّ.

يختلف الدرس اللغوي الحديث عن الدرس التقليدي بنظرته الوصفية للغة المعتمدة على الملاحظة المباشرة للظواهر اللغوية الموجودة بالفعل، ولا يهدف من ذلك إلى وضع قواعد يفرضها المتكلمين باللغة بل كل ما يهدف إليه هو وصف نظام اللغة الصوتي والصرفي والنحوي ووضع معاجمها وأصبحت القواعد الجديدة لتلك اللغات قواعد وصفية لا معيارية واهتمامهم باللغة المنطوقة، أو لغة الحديث على أنها لمظهر الأول والأساس للغة، وأن اللغة المكتوبة مظهر ثانوي، فاللغة المكتوبة تختلف اختلافا كبيرا ومن جوانب عديدة عن اللغة المنطوقة.

يهتم علم اللغة الحديث بدراسة شاملة للغة بوجه عام ولا يقتصر على دراسة الجزئيات اللغوية لاستخراج القوانين والقواعد الخاصة بها ومعرفة تطورها، فقد حدد موضوع علم اللغة في "الهدف الحقيقي والوحيد لعلم اللغة هو أن اللغة تدرس في ذاتها ومن اجل ذاتها " نستنتج من ذلك أن علم اللغة يدرس اللغة من حيث هي لغة، وليس للباحث الحق أن يغير من طبيعتها.

فدراسة اللغة ليست سهلة وإنما أداة مركبة ومعقدة في الوقت نفسه، فهي ذات جوانب كثيرة، تتألف من عناصر متعددة، تأخذ خلال الزمن أشكالا مختلفة، تتعدد وتتنوع بتعدد البيئات والمجتمعات والطبقات.

وهذا ما سنتوقف عنده من خلال ما جاءت بعض تلك الدراسات للغة المنطوقة.

الدراسات اللغوية بين الأصالة والمعاصرة

إن الدراسات اللغوية الحديثة وأسلوب معالجتها يرجع إلى طريقة تناولها من الوجهة العلمية المحضة ، وهذا لا ينتقص شيئا من فائدة الدراسات القديمة وإنما يزيدها قداسة بحيث يعتبرها الكثير من المفكرين العلماء

المرتكز الأساس في كل دراسة فكرية لغوية جديدة، لأنها ما زالت تمدنا بما نعتمد عليه في بحوثنا، فقد حصل تطور كبير في مجال الدراسات اللغوية عند مختلف الشعوب التي اهتمت بدراسة لغتها، وتحققت لديها نتائج مذهلة.

وقد تأثر الغربيون في العصر الحديث بالعالم اللغوي الهندي (بانيني) واعتبروه أعظم لغوي وصاف في العالم القديم ، وعنه اخذوا المنهج الوصفي بل" لا تزال أراء (بانيني) اللغوية مقبولة لدى الغربيين المحدثين حتى أن بعض المصطلحات الفنية التي وضعها لعدد من الظواهر اللغوية لا يزال مستعملا حتى الآن" 1

والملاحظ على الدرس اللغوي في القرن التاسع عشر قد اتخذ طابع التاريخ اللغوي والمقارنات اللغوية وكانت فيه اللغة القديمة للشعوب أساس البحث اللغوي الحديث

غير أن الدراسة اللغوية في أوربا أدت إلى انحراف دراسة اللغة عن الوجهة العلمية الصحيحة، وهو ما أدى إلى ظهور أراء مناهضة لأفكار هذه الدراسة ودعت أول الأمر إلى التفريق بين أمرين كانا يختلطان اختلاطا كبيرا وهما ما يعرفه (فقه اللغة) وهو دراسة اللغة المكتوبة أما الثاني (علم اللغة) فهو يتخذ موضوع دراسة اللغة من حيث هي ، دراسة اللغة في ذاتها ومن اجل ذاتها، كما قال سوسير فيما بعد سواء كانت هذه اللغة مكتوبة أو غير مكتوبة. 2

وبمفهوم أخر فان فقه اللغة يدرس اللغة بوصفها وسيلة لغاية أخرى كدراسة ثقافة أمة وآدابها وحضاراتها، أما علم اللغة فيدرس اللغة من اجل ذاتها.

1- الخصائص _ لابن جني 1 / 33 :

2- من المعاني النحوية في اللسانيات العربية _ منصف عاشور – مجلة الموقف الأدبي سوري العدد 135

المدرسة البنيوية

رائد هذه المدرسة دي سوسير فقد تأثر فيها بأسس النظرية الاجتماعية ذات الطابع الوصفي حيث نظر إلى اللغة بوصفها بنية متماسكة تنطوي على شبكة من العلاقات المتبادلة بين مختلف عناصرها وفق مستويات التحليل اللغوي فلا يمكن وصف الظاهرة اللغوية دون التطرق إلى بنية الجوانب الأخرى ، وقد اعتمد سوسير في دراسته اللغوية على مبدأ الثنائيات التي ترمي في مجملها إلى تأسيس أرضية صلبة لإمكانية وجود نظرية لسانية قادرة على تقويم لكل جانب من جوانب الظاهرة اللغوية ، ومما تجدر الإشارة إليها هنا هو أن هذه الثنائيات إذا ما تأملناها نجدها تحيط إحاطة منهجية بكل اهتمامات البحث العلمي من حيث الظاهرة اللغوية ، وموضوع البحث ومن حيث عناصره المكونة .1

اللغة بالمفهوم المطلق عند سوسر هي عبارة عن الميول والقدرات اللغوية عند الإنسان بصفة عامة وهي اجتماعية وفردية في آن واحد، وهي بالإضافة إلى ذلك غير متجانسة متعددة الأشكال والأنواع.

وهي وظيفة جماهير المتكلمين في البيئة اللغوية المعينة، وهي عبارة عن مجموعة من النظم والقوانين اللغوية المخزونة في عقول هذه الجماهير، واللغة بهذا المعنى تمثل الجانب الاجتماعي من القضية وهي موضوع

البحث في علم اللغة، أما الكلام فهو وظيفة الفرد المتكلم بالفعل، وهو عبارة عن الأحداث اللغوية التي يحدثها المتكلم وقت الكلام الفعلي ، والكلام شيء فردي كما انه شيء ثانوي بالنسبة للعلم اللغة، إذ مكان دراسته علم النفس ، ومن البديهي أن يركز دي سوسر اهتمامه بعد ذلك على التفريق بين اللغة المعينة والكلام إذ هما الجانبان اللذان يعنيانه، ويكونان كلا لا يختص بدراسة اللغويين ولا غيرهم من العلماء، إذ أن هذا الكل شيء مطلق لا وجود له في الخارج بذاته وإنما يتحقق وجوده في عناصره وأجزاءه المكونة له، وتتمثل الأجزاء والعناصر في اللغة المعينة والكلام ، وقد سار في نهج دي سوسر عدد كبير من اللغويين نذكر على سبيل المثال لا الحصر تلميذه تشارلز ...وكذلك جاردنز ... الذي ألف كتابا كاملا بعنوان "الكلام واللغة".

والحق أن دي سوسر في قوله بالتفريق بين اللغة والكلام متأثرا ببعض علماء الاجتماع في التفريق بينما سموه " العقل أو الشعور الجماعي ، والعقل والشعور الفردي " 2

أما اللغة: فيقصد بها اللغة بالمعنى المطلق أو هي كلام ينقصه التكلم، إنها المجموعة الكلية للعادات اللغوية التي تسمح للفرد بأن يفهم وأن يفهم وهي على هذا الأساس ملك للفرد وللمجتمع أيضا، فهي فردية و اجتماعية في آن واحد. وهي لذلك ليست واقعة اجتماعية لأنها تتضمن العوامل الفردية المنسوبة على المتكلمين الأفراد وهي تقع على حدود عدة

1- إحياء النحو : إبراهيم مصطفى – ص (53 - 60)

2ا لإيضاح في علل النحو الزجاجي – ص 69

مجالات فيزيائية وفسيولوجية ونفسية، وهي تتحقق في أشكال متعددة ومتنافرة ولذلك لا يمكن دراستها دراسة علمية لما تفتقده من مبدأ التجانس والوحدة .

الكلام: ويمثله كلام الفرد ويصدر عن غير وعي ولأنه نتاج فردي كامل،متباين المقومات متعدد الأشكال موزعا بين مجالات متعددة منتميا في الآن نفسه إلى ما هو فردي وجماعي فلا يتسنى لأي دارس ترتيبه ضمن الظواهر الاجتماعية لعدم قدرتنا على استخراج وحدته. وهو عند سوسير" كل ما يلفظه أفراد المجتمع المعين، أي ما يختارونه من مفردات وتراكيب ناتجة عما تقوم به أعضاء النطق من حركات مطلوبة"1

أما اللسان: فهو اللغة المعينة الصالحة للدراسة العلمية كالعربية والإنجليزية وسواهما، وهو مجموعة من الصور اللفظية المخزونة في العقل الجماعي، وهذه الصور ذات قيم موحدة عند جميع الأفراد ، وهو نتاج اجتماعي لملكة اللغة ، وهو خارج عن نطاق الفرد ، لأنه يرثه باعتباره تراثا جماعيا ، وليس له في هذا الميراث أي نوع من الاختيار ، فهو لا يملك التدخل في اختيار مفرداته أو تنظيم قواعده ،واللسان لا يوجد إلا بنوع من الاتفاق الجماعي ولذا فإن الإنسان لا يستحوذ على اللسان إلا بالدربة والمران .

وكما يرى سوسور الكلام لا يمكن دراسته دراسة علمية لأنه فردي ، والفردي يقوم على عنصر الاختيار، وعنصر الاختيار لا يمكن التنبؤ به وما لا يمكن التنبؤ به لا يمكن دراسته دراسة علمية . واللغة كذلك لا

تدرس بشكل علمي لأنها لا تمثل واقعة اجتماعية خالصة حيث أنها تخص الفرد وتخص الجماعة ، ولم يبق إذن الا اللسان فهو وحده الذي يمكن دراسته دراسة علمية لأنه موضوع محدد يتصف بالتجانس، ولذا يمكن ملاحظته وتصنيفه ، وله بذلك مكان بارز بين الحقائق الإنسانية.

وكثيرا ما نستعمل مصطلح لغة ونحن نقصد من وراء ذلك الكلام، فنقول مثلا لغة فلان جيدة أو لغته رديئة ونحن لا نريد من ذلك غير الكلام.ولا بد من التركيز هنا على أن الكلام عملية معقدة " تتم نتيجة مؤثرات خارجية وداخلية ، مرئية أو مسموعة ، يستجيب لها الجهاز العصبي للمتكلم ، فيصدره أوامره إلى أعضاء النطق ، فترسل هذه بدورها أصواتا تمضي في الهواء على شكل موجات صوتية ،فتتلقاها أعضاء السمع عند المتلقي ناقلة إياها إلى الجهاز العصبي ، وقد يصدر هذا أوامره بعد ذلك إلى أعضاء النطق ، وهكذا تحدث عملية الكلام ."2

1- في النحو العربي نقد وتوجيه مهدي المخزومي – ص 315

2- مدخل إلى دراسة الجملة العربية محمود نحلة ص 38

ذلك أن الميزة الرئيسية للكلام أن تفسر كل إشارة بأخرى أكثر وضوحا، ومن هنا فان كل تواصل يعتمد على عمليتين،عملية بناء المرسلة وتقوم على انتقاء الكلمات من المخزون اللغوي للمتكلم لتتناسب مع الهدف المقصود وتتم على المحور الاستبدالي. أما العملية الثانية فتتمثل في ترتيب الكلمات جنبا إلى جنب وفق قواعد النظم التي تخضع لها اللغة، ويتم ذلك على المحور النظمي .1

والعمليات العقلية عند المتكلم والمتلقي، لا تدخل في مجال علم اللغة، بل يتناولها علم جديد أخد في الاستقلال، هو (علم اللغة النفسي) .

أما علم اللغة فيختص بالنظر في الرموز الصوتية التي تنقل الفكرة من المتحدث إلى المتلقي، فيبحث كيفية تكوين هذه الرموز الصوتية التي تنقل الفكرة من المتحدث إلى المتلقي، فيبحث كيفية تكوين هذه الرموز الصوتية، وكيفية انضمام بعضها إلى بعض لتكوين الكلمات، وكيفية تكوين الكلمات للجمل، ويتناول هذا العلم أيضا ارتباط هذه الرموز بالدلالة أو المعنى .2

ويرى اللغويون المعاصرون أن تفريق سوسير بين اللغة والكلام كان ضروريا لدراسة قضية التطور اللغوي ذلك أن هذا التطور هو ضرب من التغير الذي يشبه التغير في العادات والتقاليد والأزياء "وهذا معناه أن التغير اللغوي يبدأ عند فرد ما ،أي على مستوى الكلام، فإذا وجد هذا التجديد قبولا من المجتمع أصبح بمضي الوقت عرفا لغويا سائدا " .

فالتغير اللغوي مصدره تجديد فردي يرتضيه المجتمع، << أما التجديد الذي يرفضه المجتمع فيبقى خارج مجال علم اللغة، لأن علم اللغة يبحث اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية , وليس كل تغير لغوي عند فرد ما أو مجموعة أفراد يقبل اجتماعيا، فإلى جانب تغيرات بدأت على مستوى البيئة اللغوية كلها، هناك تجديدات فردية ظلت مرتبطة بمجموعة أفراد ولم تقبل اجتماعيا >> .3

ومن الأمثلة التي يمكن أن نسوقها الدالة على أثر الفرد في إحداث التغير اللغوي ، ما لوحظ من أن (الراء) تلفظ (غينا) في نطق أهل باريس ، وأن هذا النطق بدأ عند أحد المرموقين في الدولة، فاستظرفه المحيطون به من رجال البلاط ، فقلدوه فيه وتلاهم على ذلك عدد من أبناء الطبقات المترفة ، ثم انتقل إلى غيرهم من أبناء الشعب، حتى أصبح هذا النطق هو العرف اللغوي السائد .

1- اللغة العربية معناها ومبناها - تمام حسان ص 372

2- مدخل إلى اللسانيات العامة أو العربية جعفر دك الباب ص 135

3- العربية وعلم اللغة البنيوي – حلمي خليل ص 222

وإذا كان التغير اللغوي السابق الذي بدأ في كلام فرد، قد حظي بقبول الجماعة اللغوية كلها فغدا عرفا لغويا فإن ثمة تغيرا أخر بدأ في كلام بعض الأفراد، إلا أنه لم يظفر بالقبول فلم يعم.

على العكس لم تستطع بعض الطالبات بجامعات قطر عربي تغيير بعض أصوات الأطباق دون القدر الضروري من الأطباق، فكادت (الطاء) مثلا تكون (تاء) وكادت (الضاد) تنطق (دالا) ولكن هذا الاتجاه في تغيير النطق ظل مقصورا على مجموعة الطالبات اللائي شرعن فيه، ولم يقبل اجتماعيا، ومن ثم لم يؤد إلى تغيير نطق هذه الأصوات. 1

ينظر البنيويون إلى اللغة نظرة وصفية تعتمد على الملاحظة المباشرة للظواهر اللغوية الموجودة بالفعل .

ولا يهدف إلى وضع قواعد يفرضها على المتكلمين باللغة، بل كل ما يهدف إليه هو وصف نظام اللغة الصوتي والصرفي والنحوي ووضع معاجمها.2

فقد تغير وجه الدرس اللغوي مع مطلع القرن العشرين واتخذ له مسارا آخر والفضل كل الفضل يرجع إلى العالم اللغوي السويسري ذي سوسير في هذا التغير ،فقد طلع على معاصره بأفكار واتجاهات لغوية جديدة، أحدثت ثورة هامة في دراسة اللغة، وكان لها بالغ الأثر على العلوم الإنسانية سواء على مستوى النتائج أو على مستوى البحث مما جعلتهم ينصرفون عن الدراسات التاريخية والمقارنة ، وجذبت اهتمام علماء اللسان إلى دراسة لغاتهم الحية ليصفوا أصواتها ومفرداتها وتراكيبها للوصول في النهاية إلى تقنينها وتقعيدها .3

ومن أجل هذا التغير وصف سوسير بأنه رائد الدرس اللغوي الحديث وعلامة كبرى في تاريخه ،لم يمض على ظهور منهجه سوى وقت قصير حتى عم أوروبا وأمريكا ،واخذ اللغويون هنا وهناك يطبقونه في دراسة اللغات الحديثة الحية ، وظل المنهج الوحيد السائد حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين. وقد اهتم المنهج بدراسة بنية اللغة أو هيكلها والعناصر المكونة لها بغية التوصل للقواعد والقوانين التي تتحكم في تلك البنية وتنظم استعمالها.

ونتيجة لهذا المبدأ درست اللغات الأوربية الحديثة ،ووضعت قواعد جديدة لها .ولذلك أصبحت القواعد الجديدة لتلك اللغات قواعد وصفية لا معيارية فلم يعد هناك معيار للصواب والخطأ مفروض على أفراد المجتمع بل

أصيح كل ما يقوله مجتمع معين يعد لغة سليمة تستحق التسجيل في كتب القواعد ولم يستبعدوا إلا كلام السوقة وحتى تلك اللهجات المحلية

1- اللغة العربية معناها ومبناها تمام حسان ص 178

2النظام اللغوي بين الشكل أو المعنى محمد صالح الشريف حوليات الجامعة التونسية العدد 17 ص 215

3- اللسانيات واللغة العربية بسلسلة رقم 4 أنظر

المحدودة أوجدت لها دراسات خاصة بها . 1

كان اهتمام سو سير باللغة المنطوقة أو لغة الحديث بالغ الأهمية على أنها المظهر الأول والأساس للغة وان اللغة المكتوبة مظهر ثانوي لانه ليس اللغة الفعلية التي يتعامل بها الناس ، وأكد أن اللغة ظاهرة اجتماعية وأنها اصطلاحية اتفاقية ، وأن العلاقة بين المفردات ومعانيها علاقة اعتباطية عشوائية. 2

وهكذا رفض سو سير المنهج التاريخي وأقام على أنقاضه منهجا جديدا هو المنهج الوصفي لأنه في رأيه الطريق الوحيد لبحث اللغة على أساس علمي .

ثم ساد هذا المنهج و نال احترام اللغويين الذين جاءوا بعد سوسير في أوربا وأمريكا و وعلى الرغم من أن أصحاب المنهج الوصفي سعوا إلى استقلالية علم اللغة و أنهم لم يحجموا عن الاستفادة من نتائج العلوم الأخرى كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الطب وعلم التشريح وكان سوسير نفسه متأثرا بعلم الاجتماع .

وكان ظهور المنهج الوصفي في دراسة اللغة بوجه عام ودراسة النحو بوجه خاص يعد ثورة في علم اللغة ، فقد شاع هذا المنهج، وكتبت له السيادة لا في أوربا وأمريكا حسب بل في الوطن العربي أيضا ، حيث برز عدد النحاة الذين تأثروا به، وعدوه المنهج الصحيح في دراسة اللغة العربية ، ثم حملوا على النحو التقليدي لاعتماده على المنطق والفلسفة ، وتجاوزه ظاهرة التركيب اللغوي إلى ما وراءه من ألفاظ مفترضة،لا ينطق بها المتكلم فعلا، ولا تبرز على سطح اللغة كما يقولون .3

إن الاهتمام باستعمال المنهج الوصفي المعاصر للغة جعل علماء اللغة يقيمون هذا المنهج على أسس ثلاث وهي :

1- الزمان: بحيث تحدد المدة التي تدرس فيها اللغة ،ذلك أن اللغة تتغير بمرور الزمن ، فلا بد من استقرار نظامها في وقت تناولها بالدراسة ,على أن يشمل البحث مدة أطول، تجنبا لظواهر لغوية تخلى عنها الاستعمال وقت إجراء الدراسة ، لأنها ترجع إلى عصور قديمة. فتضيق مدة البحث أمر مهم في المنهج الوصفي ، ضمانا لاستقرار اللغة المدروسة، وثبات خصائصها ونظامها، وتجنبا لأية ظاهرة قد تتسلل إليها من زمن سابق.

1- اللغة العربية معناها ومبناها ص 191 - 204

2 اللغة العربية وعلم اللغة البنيوي حلمي خليل 236

3 معناها ومبناها د/ تمام حسن ص 234

فقد فرق سوسير" بين الدراسة الحركية للغة وهي وصف للغة من خلال تطورها التاريخي ، والدراسة السكونية التي تهتم بوصف حالة معينة من اللغة في مدة ما."1

فاللغة في نظر الوصفيين ينبغي أن تدرس في مرحلة خاصة ،وفي حالة استقرارها في بيئة مكانية وزمانية محددة ، واتخذ لذلك مصطلح سانكونيك للدلالة على هذا المنهج،وهو الذي ساد علم اللغة منذ ذلك الحين.2

2 ـ المكان: اللغة تختلف باختلاف الزمان والمكان ، والثابت أن انعزال بيئة عن أخرى قد يؤدي إلى تشعب هذه اللغة إلى لهجات كثيرة ،ويكون ذلك بفعل عوامل جغرافية أو اجتماعية فيترتب قلة احتكاك بعضهم ببعض.ويتبع هذا تكوين مجاميع صغيرة من بيئات لغوية،تتسم كل منها بخصائص لغوية تميز لغتها عن اللغة الواحدة ولغات البيئات الأخرى. فالمنهج الوصفي يتطلب الاستقرار وتجانس الخصائص في اللغة التي يتخذها موضوعا للدراسة.

3 ـ مستوى الأداء:

بالإضافة إلى اختلاف اللغة باختلاف الزمان والمكان وهي تتنوع بحسب طرائق الأداء في التكلم ففي كل لغة طرائق مختلفة للتعبير ، ولكل طريقة لغة تلائمها ، ومستوى من الأداء لا يصلح إلا لها . وقد يتخذ الواصف للغة معينة الخطوات التالية الاستقراء ويتم ذلك بالاتصال المباشر والسماع من الأفواه وهذا ما يعرف في المنهج الوصفي (الدراسة الحلقية) لأنها تقوم على الاتصال المباشر باللغة المنطوقة كما هي .

ثم تقسيم المادة اللغوية وجمع ما يتوافق منها في الشكل أو الوظيفة أو فيهما معا وجعلها قسما قائما بذاته ثم تسميته باسم معين فالتصنيف يقوم على أساس ملاحظة المادة اللغوية المستقراة وإيجاد أوجه الاتفاق والاختلاف بين جزئيات هذه المادة فما توافق منها ائتلف وانضوى تحت صنف بعينه وما تناكر منها اختلف وانضوى تحت صنف أخر .18

ثم تأتي مرحلة التقعيد " وليست القاعدة هنا قانونا يفرضه الباحث على المتكلمين باللغة ، وإنما هو تعبير عن شيء لاحظه الباحث وكان عليه أن يصفه بعبارة مختصرة قدر الإمكان."3

أن أفكار وتحليلات ودراسات المدرسة البنيوية كانت ولا تزال تؤثر سلبا أو إيجابيا في كل تفكير معاصر لغويا كان أم أدبيا أم أسلوبيا .

1 ـ تعليم ـ اللغة العربية النحو بين النظرية والتطبيق / تمام حسن مجلة المناهل المغربية العدد8 ص110/ -116

2 ـ اللغة العربية معناها ومبناه تمام حسن ص 90

3 ـ في إصلاح النحو العربي عبد الوارث مبروك – ص 126 _ 127

و في أواخر القرن التاسع عشر ظهر لغويون عارضوا المنهج التاريخي المقارن وحملوا على أسلوب مقارنة اللغات الحية بلغة ميتة ، وكان اللغوي السويسري (سوسير) المتوفى عام 1913 من أوائل اللغويين المعاصرين الذين عارضوا البحث التاريخي المقارن ، وذهب إلى أنه لا يصلح لدراسة اللغات الحية ثم قرر سوسير أن اللغة ينبغي أن تضيق دائرة درسها، فتدرس في مرحلة خاصة وفي بيئة مكانية وزمانية محدودة و أطلق على منهجه هذا (المنهج الوصفي) .

بعدما كانت الدراسات اللغوية ترتكز أساسا على الفيلولوجية، انطلاقا من البحث التاريخي للظواهر اللغوية وتبنت هذه الطريقة جماعة من النحاة الشبان واعتبرتها الطريقة الوحيدة لدراسة اللغة، غير أن هذا الاتجاه لقي اعتراضا شديدا فالتناول التاريخي للظاهرة اللغوية ليس كما يرى أصحاب هذا الاتجاه تناولا علميا، لأنه لا يستطيع أن يطبق مبادئ البحث العلمي، وتقرر أن اللغة ينبغي أن تدرس في حالة استقرارها في بيئة مكانية وزمانية محددة ، وقد اتخذ لذلك مصطلح synchronic للدلالة على هذا المنهج ، والذي ساد علم اللغة منذ ذلك الحين .1 فدراسة اللغة في حال استقرارها هو ما يعرف الآن بالمنهج الوصفي الذي يراه اللغويون المحدثون حتى الآن المنهج الصالح لدراسة اللغة على أساس علمي .

الدراسات اللغوية بين الوصف والتحويل

اللغة والمنهج الوصفي

المقصود من المنهج هو فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة من أجل الكشف عن الحقيقة، وهو النسق الذي يتبعه الباحث وصولا إلى الحقيقة التي ينشدها، والمرشد الوحيد لعالم اللغة، ويستخدم المنهج في دراسة اللغة بحيث يعتبر المنظار الحقيقي الذي به" ينظر إلى اللغة نظرة وصفية تعتمد على الملاحظة المباشرة للظواهر اللغوية الموجودة بالفعل .ولا يهدف إلى وضع قواعد يفرضها على المتكلمين باللغة ، بل كل ما يهدف إليه هو وصف نظام اللغة الصوتي والصرفي والنحوي ووضع معاجمها.2

حدثت ثورة جديدة في ميدان دراسة اللغة، وبرز اتجاه يدعو إلى تغيير اتجاه علم اللغة من المنهج الوصفي إلى منهج جديد

هو ما يعرف ب (المنهج التحويلي) وكان صاحب هذا الاتجاه هو اللغوي الأمريكي المعروف (نعوم تشو مسكي) المولود في أمريكا عام 1918م لقد رأى هذا اللغوي أن المنهج الوصفي يقصر اهتمامه على السطح اللغوي، فكان الحدث اللغوي

---

1 ـ النظام اللغوي بين الشكل والمعنى ـ حوليات الجامعة التونسية العدد 17 ص212

2-- علم اللغة (السعران) ص 337

أمر آلي و لا يرتبط بما في نفس الإنسان من عوالم عقلية وشعورية تؤثر في الحدث اللغوي ، وتشكله بهذا الشكل أو ذاك .

إن اللغة كما يرى تشو مسكي أهم الجوانب الحيوية في نشاط الإنسان , ولهذا ليس من المعقول أن تكون لها هذه الأهمية ثم تتحول إلى مجرد تراكيب شكلية يسعى الوصفيون إلى تجريدها من العقل 1.

ومعنى ذلك أن هذا اللغوي كان يقيم نظريته على أساس عقلي ويحاول أن يفسر ظواهر اللغة تفسيرا عقليا يناسب أهميتها، ويكشف عما وراءها من دوافع عقلية ومنطقية. وعلى هذا الأساس قسم تشو مسكي الكلام الإنساني على جانبين : الأول : ما ينطق به الإنسان فعلا وقد سماه (البنية السطحية للكلام) .

الأخر : هو ما يجري في أعماق الإنسان ساعة التكلم فيدفعه إلى تفضيل هذه الصيغة أو ذاك التركيب , وسماه (البنية العميقة للكلام) . ومعنى ذلك أن اللغة التي ننطق بها فعلا إنما تكون تحتها عمليات عقلية عميقة , ودراسة بنية السطح تقدم التفسير الصوتي للغة , أما دراسة (بنية العمق) فتقدم التفسير الدلالي لها .

ومن أجل ذلك رفض تشو مسكي المنهج الوصفي لقصوره، وعجزه عن الإيغال فيما وراء الأشكال اللغوية الظاهرة والمنطوقة أو المكتوبة .2

وقد طبق المنهج التحويلي على دراسة النحو فظهر ما يسمى (النحو التحويلي) وهو كما تقدم يهتم بالبنية العميقة للكلام ويحاول أن يربط بينها وبين ما تتحول إليه من بنية سطحية.

وتسمية هذا النحو بالتحويلي نابعة من انه يفترض لكل بنية لغوية ظاهرة، بنية أخرى عميقة كامنة في ذهن المتكلم، ثم يحاول الكشف عن كيفية تحول البنية العميقة الثانية إلى البنية السطحية الأولى , أو البنية الظاهرة الملفوظة .

ولابد لمن يتبع هذا المنهج في دراسة النحو من أن يعتمد على الحدس أو التصور أو الفروض العقلية. ولابد من الإشارة إلى أن جو مسكي الذي ينسب إليه هذا المنهج ويعد أول من وضع أسسه وأظهر أهميته، قد درس العبرية القديمة، وربما درس أصول النحو العربي عن الطريق المترجمات العبرية في الأندلس، وهي مترجمات نقلت قواعد النحو العربي , وطبقته على العبرية . 3

ومن هنا يمكن أن نفترض تأثر تشو مسكي والمدرسة التحويلية بالدراسة اللغوية العربية القديمة وأما على صعيد الغربيين

1-- مدخل الى علم اللغة د/ محمد حسن عبدالعزيز ص125

2-- علم اللغة العام ـ دي سوسير (ترجمة يؤيل عزيز ص91

3-- اثر محاضرات سوسير في الدراسات العربية الحديثة ـ حيدر سعيد ص60

تشو مسكي أيضا لم يكن أول من فطن إلى هذا المنهج , وإن كان هو أول من أعطاه هذا المصطلح فقد أشار إليه لغويون غربيون بعبارات متفاوتة بين التلميح والتصريح , لعل من أفضلها عبارة أحدهم حين قال : " اللغة كجبل الجليد العائم وما هو مكشوف منه للملاحظة المباشرة أقل بكثير مما يخفى منه تحت الماء " .

البنى التركيبية في المنهج التحويلي:

يقوم هذا المنهج على فكرة ملخصها (أن هناك تركيبات أساسية تشترك فيها اللغات جميعا، وان وظيفة القواعد التحويلية هي تحويل تلك التراكيب الأساسية إلى تراكيب سطحية، وهي التراكيب المنطوقة فعلا ويسمعها السامع) . ومعنى ذلك أن القواعد التحويلية هي " التي تضفي على كل جملة تولدها تركيبين : أحدهما باطني (أساسي) والآخر ظاهر (سطحي) وتربط بين التركيبين بنظام خاص " .1

والتركيب الباطني أو الأساسي أو البنية العميقة عند تشو مسكي " هو المعنى الكامن في نفس المتكلم بلغته الأم ، ومقياسه المقدرة أو الكفاية التي تتكون في الفرد وتجعله يعبر عما في باطنه بجمل عديدة لم يسمعها من قبل . وهذه المقدرة تولد مع الطفل، وتمكنه من تعلم أية لغة في العالم "

ثم أن هذه المقدرة أو الكفاية هي التي يتم بها أداء جمل عديدة عن المعنى الباطني .

" وهذه الجمل ما هي إلا مظهر سطحي أو تركيب سطحي لذلك المعنى الباطني ، والكفاية أو المقدرة ، إذن هي التي يقاس بها التركيب الباطني , أما البنية السطحية فيمثلها الأداء الفعلي للكلام" .

ويذهب بعض الدارسين إلى أن تشو مسكي في قوله بالمقدرة على اللغة الكامنة في الإنسان التي تمكنه من استيعاب اللغة والنطق بعبارات لم يسمعها من قبل " ربما كان متأثرا في ذلك بالمفكر الفرنسي ديكارت الذي يرى أن أهم فرق بين الإنسان والحيوان هو مقدرة الأول على اللغة، وترتيب الكلمات في طرق مختلفة ، لكي يعبر بها تعبيرا لائقا عن أي شيء يقال في حضوره ، حتى إن كان ـ أي الإنسان ـ في أدنى مراتبه ، في حين أن الحيوان لا يستطيع أن يفعل ذلك مهما بلغت درجته من الكمال , ومهما ساعدته الظروف المحيطة به " .

ويقال أيضا أن تشو مسكي ربما كان متأثرا بالعالم الألماني مولر المتوفى عام 1900 الذي كان يرى أن الفضل في نشأة اللغة يعود إلى غريزة زود بها الإنسان في الأصل للتعبير عن مدركاته بأصوات مركبة ذات مقاطع ، كما زود باستعداد فطري

1ـ النحو العربي والدرس الحديث ـ د/ عبده الراجحي ًص29

للتعبير عن انفعالاته بحركات جسمية و أصوات بسيطة . فالطفل عندما يرى حدثا أمامه يستقر في نفسه معنى هذا الحدث لغويا ومغلفا بالمفردات وهذا في نظر التحوليين التركيب الباطني

والكفاية أو القدرة على اللغة هي التي جعلت هذا التركيب يستقر في النفس ، وهذه القدرة إنما هي جزء من مكوناته البيولوجية ، تم يعبر عما استقر في نفسه ويحوله إلى بنية سطحية ، وهذه البنية السطحية يمثلها الأداء .

ولا علاقة لهذه البنى بالمؤثرات الخارجية المحيطة به لان جومسكي لا يعترف بالعوامل الخارجية التي قال بها أنصار المدرسة السلوكية في التعبير اللغوي ، وأن اللغة لا تعدو أن تكون مجموعة من العادات السلوكية

مثلها في ذلك مثل أية عادة سلوكية أخرى، ولذلك أهملوا دراسة المعنى ، لأنه لا يخضع للمنهج العلمي الذي يهتم بدراسة الأشياء الظاهرة فقط أو الماديات . 1

لقد أنكر تشومسكي كل ذلك ورأى أن اللغة إنما هي جهاز محكوم بقواعد معينة ، وهي قواعد التحويل وعناصره ، وأن العلاقات بين أجزاء الجملة الواحدة أعمق بكثير من تلك العلاقات الظاهرة على السطح. .

يرى التحوليون أن اللغة لها مظهرين الأول هو المظهر الخارجي لها ن أي الكلام المنطوق به فعلا ، وهو محل دراسة الوصفيين من اللغويين الذين تأثروا بالمدرسة السلوكية في علم النفس ، في حين أن التحوليين اعتبروه مظهرا خارجيا له أثر صوتي يعتمد على الأداء ، ويجب أن يرد إلى التركيب الباطني ، وهو المظهر الثاني عندهم ، ويتمثل في المقدرة ، أو الكفاية الكامنة في الإنسان التي تجعله يستوعب القواعد أو الأسس التي ينبني عليها الكلام .

فالنحو التحويلي نظرية ذهنية تهتم بالحقيقة الذهنية التي تكمن وراء الأداء اللغوي ، ومن تم كانت مادة القواعد التحويلية هي اللغة الصرف ، لأنها تتعامل مع المقدرة اللغوية، في أن المادة اللغوية التي تتعامل معها القواعد الوصفية هي مزيج من مؤثرات لغوية ونفسية واجتماعية إذ أنها ترتكز على الأداء اللغوي الذي يتأثر بهذه العوامل.

الدرس العربي و المنهج التحويلي:

من خلال دراستنا ووقوفنا على أهم النتائج العلمية التي توصل إليها التحويليون في ميدان الدراسات اللغوية تظهر لنا سمات أساسية من تراثنا النحوي في المنهج التحويلي، كانت بارزة واضحة في تفكير النحاة العرب ومن أهمها .

ـ البحث عما يسمى (الأصل والفرع) للظاهرة اللغوية، لقد اهتم النحاة العرب بعدة قضايا لغوية ونحوية ، واهتموا بالتعريف والتنكير واعتبروا النكرة أصل والمعرفة فرع ، والمفرد أصل والمثنى والجمع فرعان عليه، ومن هذه السمات أيضا

1ـ في اللهجات العربية ـ د/ إبراهيم أنيس ص21

أنهم لم يكونوا يقتنعون بالوقوف عند البنية السطحية للغة، وإنما يبحثون عما وراءها من علل وأسباب ، فالمضاف إليه لم يكن مجرورا إلا لأن الإضافة عندهم على نوعين : بمعنى اللام ـ وبمعنى من ـ ثم حذف حرف الجر وقام المضاف مقامه، فعمل الجر في المضاف إليه كما يعمل حرف الجر .(كتاب زيد ـ ثوب خز) أصل التعبير كتاب لزيد ، وثوب من خز .

وقف الوصفيون عند ظاهرة الجر في المضاف إليه واكتفوا بتسجيلها من غير أن يبحثوا عن السبب الذي يقف وراءها ، إذ لا دليل عندهم عليه بل هو مجرد افتراض .ويتضح مما سبق أن النحاة العرب كانوا آخذين بأكثر ملامح المنهج التحويلي،فهم يؤمنون بأن لكل بنية لغوية ظاهرة بنية ثانية عميقة كامنة في ذهن المتكلم ، وأن وظيفة النحو توفيقية بين هاتين البنيتين.1

فالمستثنى في نظر نحاة العرب ليس منصوبا عندهم ب(إلا) بل هو منصوب بفعل كامن في ذهن المتكلم تقديره (استثني) أو منصوب ب (إن) مضمرة ، فأصل التعبير أو بنيته العميقة (قام التلاميذ استثني عمرا) أو (قام التلاميذ إلا أن عمر لم يقم) ومن النحاة الغربيين من أصبح على قناعة بأن الاتجاه العقلي في فهم اللغة هو الاتجاه الصحيح ،وأن الوقوف عند سطح الظاهرة اللغوية لا يكشف عن جوهر الظاهرة ، وقد أطلقوا على هذا الاتجاه المنهج التحويلي ، وهو منهج آمن به اللغويون العرب مند مئات السنين وأن جذوره واضحة في التراث النحوي العربي وربما كانت هذه الجذور أحد الأسس التي أقام عليها التحوليون منهجهم العتيد. 2

ونحن نشير إلى الجوانب التحولية في النحو العربي، لا بد لنا من القول أن جو مسكي الذي رفض النهج الوصفي لقصوره على إدراك الجانب الخفي في اللغة ، أو لقصور المنهج الوصفي عن ربط اللغة بالجانب العقلي ، يشبه في عمله هذا عمل اللغوي العربي عبد القاهر الجر جاني فجو مسكي كان معنيا بدراسة القدرة اللغوية , وهي ملكة عقلية , لا دراسة الأداء اللغوي ، أو كان مهتما بدراسة العلاقة الجدلية بين الكلام اللفظي والكلام النفسي ، على ما هو الحال عند عبد القاهر الجر جاني في اعتماده على القول بالنظم المتمثل بالعلاقات المعنوية بين الأصناف النحوية، بل آن جهد كل منهما قد تبلور " في إعطاء النحو إمكانات تركيبية مستمدة من قواعده الفعلية بحيث أصبحت هذه الإمكانات أشبه شيء بصندوق مغلق له مدخل ومخرج تدخل فيه المفردات وتتفاعل ثم تخرج على الصورة التأليفية الجديدة ونحن لا نلمس سوى المظهر المادي للعملية ، أما الجانب العقلي فهو خفي داخل الصندوق "3

1-- اللغة بين المعيارية والوصفية ت د/ تمام حسن ص165

2- النحو العربي و الدرس الحديث ـ د/ عبده الراجحي ص 112

3-- علم اللغة التقابلي ـ ص28

الوظائف النحوية و الدرس اللغوي الحديث

اللغة هي أداة التفكير واهم وسائل التواصل بين الناس ، وقد شهدت مختلف لغات العالم تطورا في مصطلحاتها وتراكيبها وقواعدها ، وسيطرت بعض اللغات على نظيرتها وأصبحت لغة بديلة لكثير من اللغات السائدة ، لكن المؤسف أن لغتنا العربية بقيت جامدة بل تراجعت إلى درجة لم يعد أهلها يعيرها أي اهتمام والسبب في نظر الكثير من المهتمين بقضايا اللغة العربية إلى التعقيدات النحوية والاشتقاقات اللغوية .

لقد ربط علماء اللغة الأفاضل النحو بالقرآن ،فجعلوه كالقرآن لا يحق لأحد نقده أو معارضته ، فالنص العربي في شكله هو أساس القراءة الصحيحة تم يأتي بعد ذلك المضمون الذي يطوع غصبا ليخضع لقواعد اللغة .

اللغة في نظر علمائها هي كائن حي ومعنى ذلك أنها تعيش وتموت وتتطور وتتظهور، والإنسان هو الذي يحي اللغة وهو الذي يميتها وليس العكس فالعلاقة بين الإنسان واللغة علاقة حية متطورة ، فهناك الكثير من الألفاظ توقف استعمالها في لغتنا العربية وبالمقابل ظهرت الكثير من المفردات الجديدة التي لا تحصى

وترعرعت وسيطرت في الكثير من ميادين البحث والاختراع العلمي المتقدم كونها تمثل العلاقة الحية بين العقل والمنطق .

شهد القرن العشرون نشاطا متميزا في مجال الدراسات النحوية واللغوية وأسس بنيانه على مناهج علمية متنوعة ، ووقف الدارسون إزاء هذه المسألة مواقف متباينة، فمنهم من يأخذه الاعتزاز بالتراث فلا يلتفت إلى الجديد، ومنهم من يرى أن النحو العربي لا بد أن يتخذ له موقعا في النظر النحوي المشترك بين الأنحاء المختلفة، ويلاحظ الباحث أنه أمام موقفين على طرفي نقيض ، وأن الأمر ما زال بحاجة إلى نظرة موضوعية تزن القضية بميزان النصفة.

يعد التعبير في نظر علماء اللغة عن الأحاسيس أو المقاصد التي يرغب المتكلمون في تبليغها إلى السامعين إحدى الوظائف التي تقوم بها اللغة. ولقد صدر النحاة القدماء في أبحاثهم عن المثل هذا التصور، وتبدي ذلك جليا لدى ابن جني حين عرف اللغة، بأنها. ((أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم)). 1

وهو على سبيل المثال ، يقرر أن الندبة أكثر من يتكلم بها النساء وهو بذلك، يكشف عن الغرض (الوظيفة) الذي تؤديه لدى استخدامها ثم إن المعاني النحوية التي تحدث عنها عبد القاهر الجرجاني (ت 471) هي الوظائف النحوية أو ما يطلق عليه اليوم ـ الوظائف التركيبة 2

1-ـ مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة ـ د/ نعمة رحيم ص 200

2- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه د/ احمد حسن ص21

ومن الأدلة على ذلك على أن النحاة القدامى تمثلوا بوضوح مواقف الاستعمال الخاصة بتعبيرات اللغة وتجنبوا الخلط بين هذه المواقف، مما يكفل أن تؤدي تلك التعبيرات الأغراض التي خصصت لها .

ثم يأتي العصر الحديث ويأخذ النحاة المحدثون من العرب على عاتقهم النهوض بالدرس النحوي، وبعد مخاض امتد قرابة أربعة عقود تنبه هؤلاء إلى أن من السبل الكافلة بتحقيق المقاصد المرجوة في هذا الميدان تأكيد وظيفة الكلمة في الجملة ، وكان من أوائل من نادوا بذلك إبراهيم مصطفى في إحياء النحو ، فقد نادى، منطلقا من وظيفة الإسناد، بقصر التسميات في الجملة العربية على مسند ومسند إليه وتكملة، 1 قاصدا بذلك إلى تخفيف معاناة الدارسين بتقليل عدد المصطلحات التي ينبغي لهم أن يحفظوها .

وعلى الرغم من أن الجهود التي قدمها الوظيفيون العرب في المجال النحو التعليمي كانت مرحلة موطأة لما أعقبها من نظرات متطورة في مجال الوظيفة ، إلا أنها لم تخرج عن نطاق النحو التقليدي الذي تتبوأ فيه ظاهرة الإعراب ، في صورتها القديمة ، المكانة الأولى .

وقد سار في هذا الاتجاه عدد من النحاة العرب المحدثين مؤكدين وظيفة الكلمة في الجملة بتعلقها مع غيرها و فكانت لهم بذلك تقسيمات جديدة للكلمة تنطلق من وظيفتها التي تؤديها فالاسم ، كما هو متعارف عند النحاة ، يؤدي وظائف شتى، أو تعتوره المعاني على حد تعبير الزجاجي 2 والفعل يؤدي جزءا من وظيفة

الإسناد ، وهكذا يجد من يقرأ ما كتبه النحاة المحدثون حول أقسام الكلمة أنهم ألقوا الضوء على وظائف هذه الأقسام ، ما وسعهم ذلك.

ومن النحاة العرب المحدثين الذين ركزوا وظيفة الكلمة في الجملة مهدي المخزومي , فقد أشار إلى أن أدوات الوصل تقوم بربط التركيبات اللغوية بعضها ببعض , ومثل لذلك بالعبارة : (أعجبني ما صنعت) . إلا أن إشارات النحاة المحدثين إلى وظيفة الكلمة في بناء التركيبي للجملة وأثرها في المعنى اقترنت بوظائف أخرى للنحو بعامة ألح عليها الوظيفيون العرب في المجال النحو التعليمي ومن بين تلك الوظائف ما يستهدف صون الألسنة من الزلل في مواقف الاستخدام الشفوي وعصمة الأقلام من العثار في الكتابة .

وفي العقد السادس من هذا القرن يتزايد الاهتمام بالمعنى في الدراسات اللغوية بعامة غريبة كانت.

1- النحو العربي والدرس الحديث د/ عبده الراجحي ص 26

2- مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة د/ نعمة رحيم العزاوي ص95

أم العربية حتى لترفع بعض الاتجاهات شعارا مؤداه أن المعنى هو الاستعمال، وفي ذلك إشارة واضحة إلى المقام الذي تستخدم فيه الألفاظ وأهميته في إبراز المعنى .

ويبدو في غاية الأهمية، هنا أشير إلى أن المعنى كان عاملا حاسما في تطور الدراسات.

اللغة بين الوصفية والوظيفية

ومن المتعارف أن الوصفية قامت على وصف التركيب الجملة وصفا شكليا لا يكون للمعنى فيه دور بارز .

ولكن الباحثين الذين تعاقبوا في ميدان الدراسات اللغوية، أخذوا على هذا المنهج إغفاله المعنى، فكان هناك توجهات عديدة إلى حل هذه الإشكالية.

وتأتي بوادر الحل بادئ الأمر، من داخل دعاة الوصفية أنفسهم، نادوا بمبدأ الحانية فجعل المعنى يسهم – إلى جانب الصيغة والموقع – في أن تتواءم الوحدات، سواء أكانت أفعالا أم أسماء أم أدوات، مع الخانات التي تملؤها تلك الوحدات، وربط بواسطة المعنى والصيغة والموقع بين الوصفية والوظيفية .

ولعل أبرز المناهج التي أولت المعنى أهمية قصوى في تفسير الظاهرة اللغوية المنهج التحويلي التوليدي الذي رفض أن يقوم البحث اللغوي على وصف المادة اللغوية وحسب، وذهب إلى أن ما يجب أن يكون موضع البحث والوصف هو السليقة اللغوية وقد استخدام هؤلاء المعنى استخداما واسعا في تفسير تطورات البنية العميقة للجملة.

وستدرك الوظيفية على التحويلين إغفائهم أثر اللغة في التواصل ، لإيمان أتباعها بأن المعنى هو الاستعمال في مقام معين، فأضافت إلى المستويات اللغوية بدا تداوليا (وظيفيا) .

ويتأثر النحاة العرب المحدثون بهذا التوجه المتزايد نحو المعنى، وتخطو الوظيفية لديهم خطوة حاسمة إلى الأمام، نظرا لما توليه من عناية للمقام التواصلي الذي يتم فيه الكلام .

وفي مطلع السبعينات يصدع تمام حسان ببناء جديد للنحو العربي جعل فيه المعنى غاية الدرس اللغوي، وتأثر سياق الحال لدى فقد أطلق عليه (المقام) وجعل السياق اللغوي موازيا له وأطلق عليه (المقال).

ومعلوم أن (تمام حسان) نحا منحى وصفيا في أنظاره ، كما أن تأثره بنظرية الغرب في سياق الحال أسبغ على عمله جانبا وظيفيا مهما، وعليه فقد وصف (تمام) النحو العربي من منظور وصفي وظيفي ، وهو المنحى الذي استخدمه جعفر دك الباب ، فيما بعد ، في وصف نظرية الإمام الجرجاني في النظم ، وأنماط الجملة العربية .1

---

1 -النحو العربي والدرس الحديث ص 112

وينبغي لي أن أشير هنا إلى أن إطلاق مصطلح "وصفي وظيفي" على ما قام به (تمام حسان) و(جعفر دك الباب) لم يأت اتفاقا، ذلك أن (تمام حسان) قد تناول النحو العربي تناولا وصفيا بعيدا عن التعليل والتقدير ، كما أنه في الوقت نفسه أخد بفكرة "وصفي وظيفي" على ما قام به (تمام حسان) و(جعفر دك الباب) لم يأت اتفاقا ، ذلك أن (تمام حسان) قد تناول النحو العربي تناولا وصفيا بعيدا عن التعليل والتقدير كما أنه في الوقت نفسه أخذ بفكرة "اجتماعية اللغة" وذلك يستلزم أن يكون للكلام وظيفة واستخدام ، وبذلك يكون منهجه وصفيا من ناحية ووظيفيا من ناحية أخرى .

أما جعفر دك الباب فقد أسس تحليله للجملة العربية على أساس المنهج الوصفي الوظيفي الذي يستطيع الربط بين دراسة بنية الجملة ووظيفتها التي يحددها الموقف الكلامي ، وهو يذكر ذلك صراحة في معرض حديثه عن نظرية الإمام الجرجاني

وإذن، فالنهج الذي اتبعه هذان الباحثان ليس وصفيا خالصا ولا وظفيا محضا، وهو_ في رأيي يأتي حلقة وصل بين الوصفية والوظيفية التداولية .

أما تمام حسان فيظهر منهجه جليا من خلال نموذج"اللغة العربية معناها ومبناها " وهو يكشف عن أن هذا العمل يهدف إلى إلقاء ضوء على التراث اللغوي من خلال المنهج الوصفي .

ويفصح إلى جانب ذلك عن أنه أقام بناء هذا النموذج على أساس أن المعنى هو الغاية في ضبط العلاقة بين الشكل والوظيفة ، منوها إلى أن النحاة العرب القدامى وجهوا جل عنايتهم إلى المبنى ، ولم يتنبهوا إلى جعل المعنى فيصلا في إقامة التوازن بين الأشكال والوظائف ، وهو يعزو هذا المنحى في البحث لدى النحاة القدامى إلى نشأة الدراسات اللغوية العربية ، تلك النشأة التي قامت بسبب من الحرص على لغة القرآن من أن تمتد إليها أعراض اللحن التي بدأت في التفشي في أوائل العهد الإسلامي .

ويدفع شبهة اطراح المعنى لدى النحاة العرب أنهم اعتمدوه"ملحوظا ضروريا في استكمال التحليل وعمل المعرب " ويتجلى

ذلك بصورة خاصة لدى ابن هشام ، وفقا لما أشار إليه نهاد الموسى في سياق الكشف عن أن النحاة العرب تجاوزوا، في
وضع النظرية النحوية ، حدود "النص" الذاتية ومادة العبارة "الكلامية" 1
ويسهم حلمي خليل في دفع هذه الشبهة عن النحاة العرب فيلمح إلى أن التوجه إلى تحكيم المعنى في الإعراب هو الذي ساد أمهات الكتب النحوية مستندا في ذلك إلى ما أورده الزجاجي في الإيضاح ، وإلى ما ذهب إليه ابن جني من أن الإعراب "هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ" ومثل ذلك كثير .

1- في علم اللغة التقابلي د/ احمد سليمان ياقوت ص38

ومعلوم أن البلاغين العرب قد نادوا بالمقولة المعروفة "لكل مقام مقال" ، وعليه فقد مزج (تمام) بين النحو والبلاغة وقد تمثل المزج على وجه الخصوص ، في علم المعاني ، وذلك ماثل في كثير من الإلماحات في الكتاب .

ومن أبرز ما نادى به تمام حسان أن اللغة نظام وأن هذا النظام يتألف من " مجموعة من المعاني " تقف بإزائها مجموعة من الوحدات التنظيمية أو "المباني" المعبرة عن هذه المعاني ، ثم من طائفه من العلاقات التي تربط بينهما ربطا إيجابيا، والفروق "القيم الخلافية" التي تربط سلبيا بين أفراد كل من مجموعة المعاني أو مجموعة المباني، وذلك بإيجاد المقابلات ذوات الفائدة.

ويستطيع المرء أن يستخلص من هذا التعريف أن لكل معنى مبنى وأن العلاقة بينهما وظائفية وهو يلح على هذه الفكرة على نحو تصبح معه الوظيفة عنده معنوية على الدوام ، الأمر الذي يستلزم أن يكون المعنى وظيفيا . ويدل على هذا التوجه المبالغ فيه نحو المعنى أنه جعل للصوت (phonème) معنى وظيفيا، ويتضح ذلك عند استبدال حرف بحرف من كلمة مثل طاب ـ تاب ـ ذاب وهكذا ... وكان يمكنه بدلا من ذلك ، أن ينسب إلى الصوت وظيفة تؤمن بها المدرسة الوظيفية التي ينتسب (تمام) إلى اتجاه من اتجاهاتها .

على أن الاهتمام بالمعنى على هذا النحو جعله يضع الشكل موضع الإهمال ، ويتضح ذلك حين ذكر أن كلا من صفة الفاعل والمفعول تحمل معنى الحدث على سبيل الانقطاع والتجدد ، الأمر الذي يوهم بأن المبنيين مبنى واحد ، وذلك يوحي بضرب من القصور في مبدأ القيم الخلافية الذي نادى به .

والأنظمة التي يتألف منها النظام اللغوي، في ضوء تصور حسان، النظام الصوتي، والنظام الصرفي ، والنظام النحوي , وسيكون مدار البحث النظام النحوي لوثيق صلته بنظرية العامل التي نادى تمام بإطراحها، مع الإشارة إلى معطيات من النظاميين الآخرين إلى جانب المعجم والدلالة ، كلما كان ذلك ضروريا .

ويعدد تمام مبادئ خمسة يقوم عليها النظام النحوي تتمثل فيما يلي : 1

طائفة من المعاني النحوية العامة (معاني الجمل والأساليب) .

مجموعة من المعاني النحوية الخاصة (معاني الأبواب المفردة كالفاعلية والمفعولية والإضافة) .

مجموعة من العلاقات تربط بين المعاني الخاصة والتراكيب التي تنظم في إطارها مما يساعد على إبراز مقاصدها كعلاقات الإسناد والتخصيص والنسبة والتبعية، وهي كما يلاحظ قرائن معنوية .

1- علم اللغة التقابلي د/ احمد سليمان ياقوت ص38

ما يقدمه علما الصوتيات والصرف لعلم النحو من قرائن كالحركات والحروف ومباني التصريف والقرائن اللفظية .

القيم الخلافية التي تمكن من المقابلة بين أفراد العنصر وسائر أفراده، كالمقابلة بين <<ما أحسن زيد وما أحسن زيدا>>

ويلاحظ من ينعم النظر في تعريف النظام النحوي أنخ المعنى يستحوذ على جملة التعريف، فالمبادئ، التي أقام عليها تمام النظام كلها معنوية، ولا يشد عن ذلك إلا تلك المعطيات التي يقدمها للنحو : النظامان الصرفي والصوتي.

وهناك مسألة مهمة لا يجد المرء صعوبة في الكشف عنها، وهي أن ما ورد في تعريف النظام النحوي لا يختلف عن النحو العربي إلا في التسميات وأسلوب العرض، فالأساليب هي الأساليب المعروفة في النحو من نداء وتعجب وغيره كما أن جانبا من الأبواب النحوية كالفاعل والمفعول والإضافة يرد بعنوان المعاني النحوية الخاصة، ثم تكمل مجموعة العلاقات جانبا مهما أخر يتمثل في المبتدأ والخبر (الإسناد) والحال والتمييز والمفعولات (التخصيص) والتوابع (التبعية).

ويعزز هذه النظرة ما أشار إليه محمد الشريف من أن ما جاء به (تمام) في النظام النحوي ، وفق ما عرض بالمعاني الوظيفية على حساب الشكل وانه له ، جاءت أقرب إلى المفهوم التقليدي للنحو منه إلى المفهوم الألسن ، وهو يعزو ذلك إلى الاهتمام بالمعاني الوظيفية على حساب الشكل، وأنه أراد أن تمزج المعطيات علم النحو بمعطيات علم المعاني ليحدث في النحو ما لم يخطر لسيبويه وعبد القادر على بال ، فانحصر تجديد في هذا الجانب المتمثل في محاولة التأليف بين التراث النحوي والبلاغي . 1 ومن المبادئ الأساسية التي قام عليها نموذج تمام حسان أن " التعليق " هو الفكرة المركزية في النحو العربي ، وأنه يمثل القرينة الأم من بين قرائن النحو العربي .

ويوضح محمد الشريف أن تمام حسان قصد "بالتعليق" العلاقات السياقية، هذه العلاقات التي تتجلى من خلالها "القرائن المعنوية" التي تلحم بدورها بالقرائن اللفظية للكشف عن المعاني الوظيفية في التراكيب النحوية .

ويوضح (تمام حسان) في نطاق سعيه إلى تأصيل مبدأ القرائن (لفظية أو معنوية) أن قرينة العلامة الإعرابية تعد إسهاما من النظام الصوتي في بناء النظام النحوي، إلى جانب البنية الصرفية التي يقدمها الصرف إلى النحو حين يتعلق الأمر على سبيل المثال ، بشروط بناء الفاعل أو المفعول أو اشتراط الجمود

للتمييز وهكذا ويتناول حسان في حديثه عن القرائن اللفظية قرائن أخرى غير العلامة الإعرابية والبنية وهذه القرائن هي

_ الربط : ويتم بالمطابقة في الشخص والعدد والنوع والتعيين ، كما يتم بغير المطابقة ، ومن بين ضروبها الربط بالضمير نحو قولنا : " قابلت الرجل الذي كلمتك عنه "

1- علم اللغة التقابلي د/ احمد سليمان ياقوت ص 39

وإعادة اللفظ , نحو قوله تعالى : " واتقوا الله ويعلمكم الله" .

الرتبة : وهي من قرائن الربط المبنى بالمبنى ، وهي نوعان : محفوظة لا تعرف تقديما ولا تأخيرا كما في الصلة والموصول ، والنعت والمنعوت ، والمضاف إليه والجار والمجرور والعطف والمعطوف ، وغير محفوظة : وتكون محكومة بقواعد التقديم والتأخير التي أرسى دعائمها النحاة والبلاغيون . . 1

ويقوم على " توزيع الوحدات اللغوية بالاستناد إلى الاستبدال واعتبار الموقع ، وهو ملحظ وقف عليه النحاة العرب عند إشارتهم إلى مبدأ << المعاقبة >> أي إن الحرف أو الأداة يعاقب حرفا أخر أو أداة أخرى أو العكس ، فحف النفي لا يعاقب (لا الناهية) في الدخول على الفعل المضارع ، كما أن حرف الجر لا يصلح للمعاقبة في هذا الموقع .

التنغيم : وتتمثل في النغمة التي يصدرها المتكلم (في الكلام المنطوق) ، ومن أبرز ما يسم هذه القرينة قيامها بوظيفة أداة الاستفهام (الهمزة) بعد حذفها من الكلام ، وقد مر تفصيل ذلك .

ويذكر تمام حسان القرائن المعنوية التي تسهم في تحقيق المعنى الوظيفي للعبارة وهي : قرينة الإسناد، وقرينة التخصيص وقرينة النسبة ،وقرينة التبعية ، وقرينة المخالفة، وهذه القرائن هي العلاقات السياقية باستثناء المخالفة التي تعتد علاقة في النطاق النظام النحوي . وقد سبقت الإشارة إلى المباحث النحوية التي تتدرج تحت هذه العلاقات فلا ضرورة لتكرير ذلك . 2

على أن مما يجب ذكره أن (تمام حسان) يعتمد على هذه القرائن التي تمثل ظاهر النص في بيان المعاني الوظيفية دون اللجوء إلى التقدير ، وهو ما يمثل روح المنهج الوصفي الوظيفي ، وبهذا المبدأ حاول أن يهدم نظرية العامل التي تعتد عماد النظرية النحوية العربية .

وجدير بالذكر أن هناك مبدأ لا يقل أهمية عن مبدأ تضافر القرائن اتكأ عليه تمام في نموذجه، وهو مبدأ " الترخص في

القرائن " . ومؤداه أنه ليس من الضرورة أن تستخدم كل القرائن اللفظية في الإعراب كلمة معينة ، وأن بالإمكان الاستغناء

1- علم اللغة التقابلي د/ احمد سليمان ياقوت 39

2- النظريات التحويلية في الدراسات النحوية العربية د/ كريم عبيد عليوي ص 77

عن بعض القرائن إذا تحقق أمن اللبس بفعل تضافر القرائن ، ففي عبارة : (خرق الثوب والمسمار) أهدرت القرينة اللفظية (العلامة الإعرابية) ، لأن اللبس مأمون بسبب توافر قرينة الإسناد بين خرق والمسمار وقرينة التعدية بين خرق والثوب 1

ويلاحظ من يطلع على الأمثلة التي حللها لتوضيح مبدأ " الترخص في القرائن " أنه فسر به مظاهر الشذوذ في النحو العربي، وقد تحقق له ذلك بالاعتماد على ظاهر النص المتمثل في القرائن المعنوية واللفظية ، ودون الاستناد إلى التقدير والتأويل

ولكن ما يجب التنويه إليه أن المرء ينتفع بمبدأ تضافر القرائن على مستوى التفسير ، لكنه سيجد صعوبة بالغة في الانتفاع به على مستوى استخدام اللغة ، فالاتكاء على المعنى وقرينة العلامة الإعرابية أجدى ، من حيث سهولة التواصل ، من الاتكاء على عدد كبير من القرائن يحتاج المرء معها إلى تلبث وأناة لا يحتملها التواصل الشفوي .

يتم استخدام منهج تطبيقي خاص لوضع خطة تقوم على المقارنة والانتقاء والتدرج وفقا لمستوى التلاميذ ن مع الأخذ في الحسبان تحديد أسلوب التنفيذ ، وطريقة العرض 2. أما برنامجه في التسيير فيقوم على المعالم التالية :

أن يقوم تدريس النحو حتى من الثانية عشرة على التمرس بنصوص سهلة مأنوسة مستجدة تعدي ـ في المراحل متقدمة من الحياة الدراسية ـ على اكتساب السليقة وتمثل القواعد . أن يتم التركيز في المرحلة الثانية (ما بين سن الثانية عشرة والخامسة عشرة) على المفهومات النحوية الأساسية كالفاعل والمفعول ونائب الفاعل والمبتدأ والخبر ، على أن يظل بالغ العناية موجها إلى الفهم والصحة التعبير والتمرس بالنصوص المنتقاة . أن يتم الفصل بين تدريس اللغة والنحو بعد سن الخامسة عشرة . أن يتم إدخال النظر النحوي ـ إذا كان بالإمكان ـ إلى جانب التدريب في نهاية المرحلة الثانوية لشعب اللغات والمعاهد العليا.على أن هناك عقبات تحول دون تنفيذ الخطة منها :

أن من الصعوبة أن يتم اكتساب السليقة من خلال تعرف الطالب هذا الكم من القرائن ،فالأجدى الاعتماد على النصوص وحسب، حتى تتوافر البساطة والوضوح الواجب توافرهما في النظرية اللغوية المتبناة ،كما تمت الإشارة إليه.

أن صاحب نموذج " اللغة العربية معناها ومبناها " لم يضع كتابا تطبيقيا لتعليم النحو على أسلس خطته الأمر الذي يوحي بشعور صاحبها أنها غير عملية .

1 - التحليل اللغوي د/ خليل عمايرة ص87

2- نفسه ص94

على أن من الإنصاف أن يذكر أن المعلم إذا تسلح بهذه الأفكار ، فإنه يستطيع الإنتفاع بها في تدريس النحو في غير وجه من الوجوه .

ومن المسائل المهمة التي ضمنها تمام حسان نموذجه أنه قسم الكلمة بوحي من الثنائية الشكل \ المعنى إلى سبعة أقسام هي : الاسم، والوصف ، والفعل، والضمير، والخالفة والظروف ، والأداة . 1

ويذهب محمد الشريف إلى أن - حسان - قد التزم بالثنائية 2- مبنى - معنى، في تمييز الأقسام السابقة للكلمة , لكنه أخل بالتوازن بينهما ، وكان إلى جانب المعنى أميل عند التعريف بهذه الأقسام ، فالاسم عنده هو " ما يسمى طائفة من المسميات الواقعة في نطاق التجربة كالأعلام والأجسام والأعراض المختلفة " وبذلك عرف الدال (الاسم) بمدلوله، أي بما يدل عليه في واقع التجربة ،وذلك شيء معنوي، وكان ينبغي له أن يبحث له عن سمات بنيوية تميزه من غيره 3

وخلاصة القول في نموذج تمام حسان أنه جعل اللغة نظاما ينتظم أربعة مستويات هي : المستوي الصوتي، والمستوى الصرفي، والمستوي النحوي ، والمستوي الدلالي، وأنه حاول أن يفسر العلاقات بين هذه المستويات وما ينجم عن هذا التفسير من مفهومات بالنظر إلى ثنائية (المبنى والمعنى) فمزج بين معطيات علم النحو وعلم المعاني ،مستندا في ذلك إلى النموذج البصري أو نحو جمهرة النحاة بتعبير أدق .

ولكن هذه المحاولة قد شابها، على عظيم مكانتها، بعض المأخذ أوجزها فيما يلي :

لقد درس تمام حسان اللغة العربية بشواهد ونصوص من الكتب النحاة ، فخالف بذلك منهجه الوصفي التزامني (Synchronique) الذي يدرس الظاهرة قي حقبة معينة ، وكان يمكن له أن يطلق على هذا الإنجاز " اللغة العربية معناها ومبناها في القرنين الأول والثاني الهجريين " مثلا، وإذن لاستقام النظر، وتواءم مع المعطيات المنهج الوصفي الذي يصدر عنه .

فالاهتمام بالمعنى لدى تمام تجاوز الحد المعتدل، وقد جاء هذا الإهتمام على حساب درس التركيب، فمن يدق النظر في النموذج لا يجد كبير عناء في الملاحظة عدم الإهتمام بالجملة العربية، مع أن الدارسين جميعا متفقون على أن الجملة هي الباب الذي يلج منه النحاة المحدثون على دراسة النحو العربي .4

1 التحليل اللغوي د/ خليل عمايرة ص95

2 مناهج البحث اللغوي ص 200 -203

3- مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة - د/ نعمة رحيم ص204

4-النحو العربي والدرس الحديث /د/ عبده الراجحي /ص

لقد عول تمام حسان في تشكيل << مفهوم المعنى >> على نظرية السياق عند فيرث لكن ذلك جاء متفقا، في جانب كبير منه مع مفهومه في النحو العربي ، وتتمثل بعض مظاهر الإختلاف في بعض المصطلحات التي أسبغها على بعض المقولات كسياق الحال والسياق الاجتماعي .

ومن الملاحظ المهمة على نموذج تمام حسان أن تضافر القرائن الذي نادى به هو ضرب أخر من العامل أعمق وأشمل، فبدلا من أن يعمل على إبراز المعنى قرينة واحدة هي العلامة الإعرابية، تتضافر على إبرازه عدة قرائن قد تكون العلامة الإعرابية من بينها ، ويكون بذلك قد إستبدل بالعامل القديم عاملا من نوع جديد . 1

أما على صعيد خطة التيسير التي ووضعت بوحي من نموذجه فتبدو مقنعة من حيث ما ورد فيها من مبادئ، لكن الخطة ينقصها جانب مهم وهو جانب التطبيق، وأعني به وضع سلسة من الكتب التعليمة تحقق المقاصد المتوخاة الواردة فيها، ولعل أقدر من يستطيع وضع أنظار معينة موضع التنفيد هو صاحبها .

على أن ما يجب التنبيه إليه أن هذه الملاحظ لا تقلل بحال من منزلة العمل الذي أنجزه تمام حسان، فقد كان نموذجه أول دراسة متكاملة على أساس المنهج الوصفي البنيوي أعاد صاحبه من خلاله درس النحو العربي القديم من منظور وصفي ، في وقت اكتفى فيه الآخرون ممن أذاعوا في الناس أنهم وصفيون ، بملاحظ لا ترقى إلى مرتبة الأعمال المتكاملة كالذي أقامه تمام حسان .

عناصر تطبيق المنهج التحويلي :

يقوم هذا المنهج على عدة اعتبارات, أهمها أن الجملة بمقتضاه هي << الحد الأدنى من الكلمات التي تحمل معنى يحسن السكوت عليه >> . 2

والجملة عند أصحاب هذا المنهج تقع في إطارين كبيرين : الاسمية والفعلية، وهي بعد ذلك إما توليدية اسمية وإما توليدية فعلية . ويراد بالجملة التوليدية ـ وقد تسمى النواة أو الجملة الأصل أو الجملة الخام ـ التي تؤدي معنى إسناديا بسيطا، وتخلو من أي عنصر يضيف إليها معنى زائدا على المعنى ألإسنادي البسيط الأصلي . وتكون الجملة التوليدية الاسمية من مبتدأ وخبر وأما التوليدية الفعلية فتكون من فعل وفاعل ومفعول .

وقد يطرأ على الجملة التوليدية عنصر من عناصر التحويل، فتصبح عند ذلك تحويلية << ولكنها تبقى كما كانت اسمية أو فعلية لأن العبرة بالأصل .

1- اللغة العربية وعلم اللغة البنيوي حلمي خليل 206

2- اللغة بين المعيارية والوصفية ت د/ تمام حسن ص195

وتكون الجملة التوليدية ـ كما تقدم ـ لغرض الأخبار، أما التحويلية فإنها تكون لمعنى جديد تحول عن المعنى الذي كان للجملة التوليدية، إذ التحويل لا يكون إلا لغرض يتعلق بالمعنى>>

أما عناصر التحويل فهي :

ـ الترتيب : وأصحاب هذا المنهج يأخذون بالرأي القديم القائل : (أن العرب إذا أرادت العناية بشيء قدمته) ويأخذون كذلك برأي الكوفيين الذين يجيزون تقديم الفاعل على فعله.

ـ الزيادة : ويقصد بها إضافة كلمات جديدة إلى الجملة التوليدية، لتصبح جملة تحويلية

ـ الحذف : ويكون في ركن رئيس من الجملة التوليدية، فتتحول إلى جملة تحويلية، ولكنها تبقى على ما هي من حيث الفعلية أو الاسمية.

ـ الحركة الإعرابية : وتكون بمقتضى هذا المنهج << ذات قيمة دلالية كبيرة، وبها يتم تحويل الجملة التوليدية عن أصل افتراضي كانت عليه للأخبار >>وهي لذلك ليست أثرا لعامل، ولا حاجة بنا لتقديره ، بل أن القول بالعامل يترتب عليه إهمال المعنى الذي جاءت الجملة أصلا له .

وأما قول النحاة القدماء بأن الحركة الإعرابية أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل ، فقد رده بعض الآخذين بمنهج التحويل هذا فقال : لهؤلاء نقول : أن الحركة الإعرابية شأنها شأن أي فونيم في الكلمة ، له قيمته وأثره في الإفصاح عما في النفس من معنى ، فيكون تغيرها محققا لما في نفس المتكلم من معنى يريد الإبانة و الإفصاح عنه .1

فإذا قال المتكلم : الأسد (بالضمة) فإن السامع يدرك أنه قد أراد نقل خبر ليس غير، ولكنه أن قال : الأسد (بالفتحة) فإن المعنى يتغير إلى معنى التحذير ، الذي هو في ذهن المتكلم ، ويريد أن يفصح عنه ،ولا يستطيع تغيير أي فونيم في الكلمة غير هذا الفونيم، فإنه أن غير فونيما أخر في الكلمة تغيرت الصورة الذهنية التي ترتبط بها الكلمة بسبب ، فلا سبيل إذن إلى التغيير إلا في فونيم الحركة الذي يؤدي إلى صورة ذهنية جديدة ولكنها تتصل بالأولى بسبب، فما كان التغيير في الحركة إلا نتيجة للتغيير في المعنى ...

وليست الحركة نتيجة لأثر عامل كما يرى النحاة . 2

1- في علم اللغة التقابلي د/ احمد سليمان ياقوت ص138

2- المرجع نفسه 121

فالحركة الإعرابية تكون إذن << اقتضاء لقياس لغوي جاء عن العرب الأول ، وقد تتغير الحركة الإعرابية اقتضاء لعنصر من عناصر التحويل ، كالزيادة أو الحركة التي تنقل معنى الجملة من الخبرية إلى معنى التحذير أو الإغراء أو الاختصاص أو المعية، أو إلى معنى الاستفهام بعد (كم) تفريقا لها عن الخبرية >> .1نماذج تحليلية للنحو التحويلي

فقولنا : (محمد مجتهد) إذا دخلت عليه (كان) اقتضى أن يكون الخبر منصوبا محولا إلى الزمن الماضي، فإذا دخلت عليه (إن) اقتضت إن يكون المبتدأ محولا إلى حالة التوكيد.

وأما في الأمثلة التالية : لم يحضر خالد ـ لن يقرأ علي الصحيفة ـ لا تلعب وقت الدرس ـ لا رجل في البيت.

فقد تغيرت الحركة الإعرابية عما كانت عليه في بعض الكلمات إقتضاءا لعنصر التحويل بالزيادة . ففي الأولى انتقلت الحركة من الضمة على الفعل المضارع إلى السكون اقتضاء للحرف (لم) وتحويل الجملة في معناها إلى الزمن الماضي في حين أن عنصر الزيادة في الثانية (لن) اقتضى فتحة ، وتحويل معنى الكلمة إلى المستقبل ، أما في الثالثة فاقتضى عنصر الزيادة (لا) السكون وتحويل الجملة إلى معنى النهي .

وأما في الجملة الأخيرة فقد اقتضى عنصر الزيادة (لا) الفتحة في المبتدأ ونقله عن موضوعه الأصلي (المؤخر) في الجملة الأصل (في البيت رجل)واقتضى عنصر الزيادة أيضا نفي الخبر.

ويكمن أن نورد بعض النماذج من الجمل التي يمكن تحليها وفق المنهج التحويلي ، فمن الجمل التوليدية نقول : (الدرس نافع) فإذا زدنا عنصرا جديدا عليها وقلنا (كان الدرس نافعا) فبعدما كان الدرس يتصف بالنفع في البنية الأولى ، انتقل معناها من مجرد اتصاف بالنفع إلى كون هذا النفع قد حصل في الماضي وأن الفتحة التي لحقت (نافع) فهي حركة اقتضتها (كان) .

وجملة (أكان الدرس نافعا) جملة تحويلية فيها عنصران من عناصر التحويل هما(همزة الاستفهام) و(كان) وقد نقل هذان العنصران التحويليان معناها من مجرد اتصاف الدرس بالنفع إلى السؤال عن حصول النفع في الزمن الماضي .

وجملة (نافع الدرس) جملة تحويلية اسمية، وعنصر التحويل فيها تقديم الخبر على المبتدأ ، لأن المتكلم مهتم به وراغب في تسليط الضوء عليه .وهذا ما جعله ينقله من مكانه الطبيعي إلى مكان الصدارة في الجملة .

و(أ نافع الدرس) فهي جملة تحويلية اسمية ، فيها عنصران من عناصر التحويل هما (التقديم) و(همزة الاستفهام) فالمتكلم مهتم ب (نافع) وسائل عن تحققه .

1- النظريات التحويلية في الدراسات النحوية العربية د/ كريم عبيد عليوي ص 87

وجملة (حضر زيد) توليدية فعلية تحمل مجرد الإخبار بحضور زيد في الزمن الماضي ، أما جملة (كيف حضر زيد) فهي جملة تحويلية فعلية أضيف عليها عنصر تحويلي هو (كيف) لتضيف إليها معنى جديدا هو الاستفهام عن الحال التي حضر عليها زيد ، لعلم المتكلم أن المخاطب يعرف هذه الحال ويستطيع الإخبار عنها. 1

إن تتبع المنهج التحويلي في تحليل التراكيب اللغوية يزيدنا فهما للمعنى ويعطينا دلالات أدق و أوضح، كما يوقنا على الوحدات الدلالية التي تتكون منها الجملة ووظيفة كل عنصر فيها، ففي ظل هذا المنهج تتبدل النظرة إلى الكلمة فبدلا أن نبحث لها عن عامل ومعمول أو أن نلتمس لها حركة إعرابية سواء كانت ظاهرة أو مقدرة، نحاول أن نفهم الدور الذي تقوم به في معنى الجملة، والأثر الذي قد تخلفه في ذلك المعنى من حال إلى حال.

يعتبر التحليل القائم على التوليد والتحويل في نظر الكثير من علماء اللسان المعاصرين أجدى في فهم التراكيب اللغوية التي ينتجها المتكلم وإدراكا لعناصرها الأساسية والمزيدة.

1 النظريات التحويلية في الدراسات النحوية العربية د/ كريم عبيد عليوي ص123

الخاتمة

الخاتمة

تبين من خلال هذا البحث أنه ينبغي تصميم علم النحو، بحيث ينتهي إلى الوحدة المنهجية ويؤدي إلى الابتعاد عن التشتت والتعقيد اللذين يسببان الخلل في تعليم

النحو وتعلمه؛ وذلك ممكن، إن ننتبه إلى الأمور التالية:

ـ علم النحو يهتم بدراسة وصفية لقواعد اللغة؛ فعلى النحوي أيضا أن يصف الموضوعات النحوية فحسب، ويسجل نتائج دراساته بشكل قواعد توافق طبيعة اللغة واستعمال أهل اللغة، ولا يقوم بتجويز القواعد ولا يركز على الأمثلة والشواهد الشاذة التي تخالف القواعد النحوية.

ـ يجب أن تخضع قواعد النحو للغة، وليست اللغة خاضعة لقواعد النحو. اللغة تتحول كغيرها من الظواهر الاجتماعية؛ لذلك يجب أن يكون النحو متطورا، لأن اللغة تتطور دوماً. وتجدر الإشارة إلى أنه لا تفسد اللغات عندما تتغير، لكنها تتحول من مرحلتها السابقة؛ الى المرحلة التالية من اللغة ليست أكثر ولا أقل قيمة من المرحلة السابقة

ـ يجب أن يميّز علم النحو بين لغة التحدث ولغة الكتابة؛ لأن لكل منهما نظاماً خاصاً يختلف بعضه عن بعض.

ـ طبيعة اللغة بعيدة عن تعريفات غير لغوية؛ وبالتالي لا ينبغي للباحث النحوي أن يتخذ نهجا عقلانيا في دراسة القضايا اللغوية؛ لأن هذا سيجعل اللغة تبتعد عن طبيعتها. ومن الضروري أيضا تجنب إدخال موضوعات ووجهات نظر لعلوم أخرى في دراسة القضايا النحوية، لكي لا يؤدي إلى اختلاط النحو بالعلوم الأخرى.

نظرية العامل هي أفضل مثال للتعبير عن الموقف غير اللغوي للنحويين تجاه قضايا اللغة، وهي التي أصبحت أكبر مشكلة في النحو العربي ويجب تعديلها.

يعد السماع أول الأصول النحوية وأهمها التي اعتمدها النحاة في تقعيد قواعدهم.

2- السماع هو الكلام الفصيح المنقول من مصادر موثوق بفصاحتها، وهي ثلاثة مصادر أساسية تتمثل في: القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكلام العرب من شعر ونتر. وقد خلص البحث الى عدة نتائج هائلة كانت لها أثر الكبير وفضل السبق في الدراسات العلمية للغات في علم اللسانيات الحديث نذكر من بين أهم النتائج المتوصل اليها:

والسماع هو الأساس الأول الذي دَوَّنَ العلماء بموجبِه اللغة؛ لأنه السبيل الطبيعي إلى تعرُّف كنْه اللغة، وتوضيح خصائصها، كما أنه أقرب طريق إلى ضبط العربية، ومعرفة المستعمل منها، إذ إن اللغات في أصلها نقلية، وأساس معرفتها ومعرفة خصائصها السماع .السَّماع: ويقصد به النُّحاة مجموع ما سُمع ونقل إلينا من الكلام العربيّ الفصيح وهو أقسام

- 1 :القرآن الكريم: ويُستدل به كلّه دون استثناء، وكذلك يُستدل بكل قراءاته المُتواترة منها والشاذة لاتفاق على أنه المِقياس الذي عليه يقاس الكلام على سبيل التركيب والقواعد والصيغ . العرب جميعا أنه النموذج الأعلى للفصاحة والسلامة والبلاغة، فأجمع العرب مُسلمهم وغير مُسلمهم

- 2الأحاديث النبويَّة: وهنا سنرى موقفَيْن للنُّحاة هناك أغلبهم رفض أخذ اللغة من أحاديث النبي- صلَّى الله عليه وسلم وقلَّة قليلة ارتضت ذلك ومنهم ابن مالك صاحب الألفيَّة الشهيرة، وهذا الموقف يبين مدى جدية ونزاهة النحاة، لأن المقياس هو صدور الكلام عن العربيّ الفصيح الخالص، وقد رفضوا الحديث النبوي لأنَّ غالب الحديث روي بالمعنى لا باللفظ.

- 3 كلام العرب المنقول: شعرا ونثرا وأقوالا عاديَّة ويشترطون للمَنقول عنهم أنْ يكونوا فُصحاء خُلصا عرب اصليين لا هُجنة فيهم- وقد حدَّدوا حيّزًا مكانيًّا للنقل منه هو قلب الجزيرة العربيَّة، ومنعوا الأخذ عن العرب المتطرفين أي الذين على أطراف الجزيرة العربيَّة- لاختلاطهم بغيرهم من الأُمم، ومَخافة تأثير هذا الاختلاط على ألسنتهم .كما حددوا حيزا زمنيا معينا سموه «عصر الاستشهاد" أيْ الذي يقبل منه اللغة ويحقّ الاستشهاد به .

- 4الإجماع: كانت الآراء والأحكام النحوية تتخذ بإجماع النحاة على قاعدة أو حُكم مصدر لهذا الحُكم،بعد استقراء مت جمع من اللغة المنقولة من السماع وفحصها فحصا جيدا بغرض استخلاص القواعد منها

- 5 .القياس: ويعد أكبر الآليات والمناهج النحوية بعد حصر اللغة والنظر فيها، ويكون بقياس التركيب على التركيب والصيغة على الصيغة وله أركانه.

إن الجانب الصوتي في اللغة العربية يلعب بحروفه وحركاته ومكوناته وعناصره دورًا مهمًا في تكوين الدلالة وبنائها؛ لذلك فإن اللغة العربية اعتمد أهلها كثيرًا على هذا الجانب اللغوي في التواصل اللغوي وتحقيق الدلالة المقصودة؛ فلعبت المشافهة كما لعب السماع دورًا مهمًا في التشكيل الدلالي للعربية .من هنا كان الاهتمام بهذا الجانب الحيوي والمهم في العربية في العملية التعليمية ضروريًّا ومهمًا في تحقيق عملية التواصل اللغوي السليم؛ فاللغة العربية لغة شفاهية وسماعية لعبت المشافهة والسماع دورا مهما في تاريخ العربية الطويل منذ العصر الجاهلية ولا يزال وسيظل بسبب هذا المكون الدلالي الخاص بتلك اللغة.

ويدرك الجميع أن العنصر الحي للغة يتمثل في الجانب الاستعمالي في اللغة أما الجانب الكتابي فهو جانب سكوني للغة ولا يعدُّ جانبا حيويا كالجانب الصوتي والشفاهي للغة؛ لأن الحروف الكتابية ماهي إلا رموز للأصوات اللغوية وليست هي بالفعل .

أما المناهج الدراسية الحديثة فقد اهتمت باللغة المنطوقة واعتبرت اللغة المكتوبة انه موروث ثقافي قابل للتغير أما المسموع من اللغات حتى لو كان شاذا فهو قابل للدراسة والتقعيد.

ونتيجة لهذا المبدأ درست اللغات الأوربية الحديثة ،ووضعت قواعد جديدة لها .ولذلك أصبحت القواعد الجديدة لتلك اللغات قواعد وصفية لا معيارية فلم يعد هناك معيار للصواب والخطأ مفروض على أفراد المجتمع بل أصيح كل ما يقوله مجتمع معين يعد لغة سليمة تستحق التسجيل في كتب القواعد ولم يستبعدوا إلا العبث من كلام السوقة وحتى تلك اللهجات المحلية المحدودة أوجدت لها دراسات خاصة بها .

كل الاهتمامات الدراسية تخص اللغة المنطوقة أو لغة الحديث على أنها المظهر الأول والأساس للغة وان اللغة المكتوبة مظهر ثانوي لأنه ليس اللغة الفعلية التي يتعامل بها الناس، وأكد أن اللغة ظاهرة اجتماعية وأنها اصطلاحية اتفاقية.

ونتيجة لهذا المبدأ درست اللغات الأوربية الحديثة ،ووضعت قواعد جديدة لها .ولذلك أصبحت القواعد الجديدة لتلك اللغات قواعد وصفية لا معيارية فلم يعد هناك معيار للصواب والخطأ مفروض على أفراد المجتمع بل أصيح كل ما يقوله مجتمع معين يعد لغة سليمة تستحق التسجيل في كتب القواعد ولم يستبعدوا إلا كلام السوقة وحتى تلك اللهجات المحلية المحدودة أوجدت لها دراسات خاصة بها .

قائمة المراجع

قائمة المراجع

1- النحو إلى أصول النحو، عبد الله بن سليمان العتيق

2- المدارس النحوية (مدرسة البصرة) - مقالة لأحمد الفقيه.

3- التحفة السنية بشرح المقدمة الآجرومية - محمد محي الدين عبدالحميد الكتاب عمرو بن عثمان بن قنبز الحارثي الملقب النحقق عبدالسلام محمد هارون سيبويه دار الفجر دمشق.
4- شرح الآجرومية - حسن حفظي الكتاب عمرو بن عثمان بن قنبز الحارثي الملقب النحقق عبدالسلام محمد هارون سيبويه
5- تاريخ النحو - علي النجدي ناصف
6- طبقات النحويين واللغويين محمد الحسن للزبيدي، المحقق محمد أبو الفضل ابراهيم
7- مغني اللبيب في كتب الأعاريب لابن هشام الانصاري المصري
8- الخصائص أبو الفتح عثمان بن جني
9- سير أعلام الأدباء - شمس الدين الذهبي.
10- بغية الوعاة للسيوطي، ونشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة لمحمد الطنطاوي
11- سير أعلام النبلاء - ج 10
12- النحو الوافي لعباس حسن
13- جامع الدروس العربية - مصطفى الغلاييني - المكتبة العصرية – صيدا بيروت
14- سير أعلام الأدباء - شمس الدين الذهبي - مؤسسة الرسالة
15- الفهرست لابن للنديم - أبو فرج بن أبي يعقوب المعروف بالوراق، تحقيق رضا. ج 1
16- قواعد اللغة العربية - حفني ناصف ومحمد دياب ومصطفى طمومومحمود عمر وسلطان محمد- مطبعة الشام - ط1.
17- المدارس النحوية - شوقي ضيف - دار المعارف - القاهرة - ط7.
18- المدارس النحوية أسطورة وواقع - د. إبراهيم السامرائي - دار الفكرعمان - ط1.
19- معجم الأدباء - ياقوت الحموي الرومي - دار الغرب الإسلامي – تحقيق إحسان عباس ط1 بيروت.
20- المدارس النحوية - شوقي ضيف.
21- الخصائص _ لابن جني 1

-22 من المعاني النحوية في اللسانيات العربية _ منصف عاشور – مجلة الموقف الأدبي سوري العدد 135
-23 إحياء النحو: إبراهيم مصطفى
-24 الإيضاح في علل النحو الزجاجي
-25 في النحو العربي نقد وتوجيه مهدي المخزومي
-26 مدخل إلى دراسة الجملة العربية محمود نحلة
-27 مدخل إلى اللسانيات العامة أو العربية جعفر دك الباب
-28 اللغة العربية وعلم اللغة البنيوي – حلمي خليل
-29 النظام اللغوي بين الشكل أو المعنى محمد صالح الشريف حوليات الجامعةالتونسية العدد 17
-30 اللسانيات واللغة العربية بسلسلة رقم 4
-31 اللغة العربية معناها ومبناها
-32 معناها ومبناها د/ تمام حسن
-33 تعليم ـ اللغة العربية النحو بين النظرية والتطبيق / تمام حسن مجلةالمناهل المغربية العدد8
-34 إصلاح النحو العربي عبد الوارث مبروك
-35 النظام اللغوي بين الشكل والمعنى ـ حوليات الجامعة التونسية العدد 17
-36 فقه اللغة في الكتب العربية
-37 علم اللغة (السعران
-38 مدخل الى علم اللغة د/ محمد حسن عبدالعزيز

-39 علم اللغة العام دي سوسير ترجمة يؤيل عزيز
-40 اثر محاضرات سوسير في الدراسات العربية الحديثة ـ حيدر سعيد
-41 النحو العربي والدرس الحديث ـ د/ عبده الراجحي
-42 في اللهجات العربية ـ د/ إبراهيم أنيس
-43 اللغة بين المعيارية والوصفية ت د/ تمام حسن
-44 النحو العربي و الدرس الحديث ـ د/ عبده الراجحي
-45 علم اللغة التقابلي
-46 النظريات التحويلية في الدراسات النحوية العربية ـ د/كريم عبيد عليوي
-47 في التحليل اللغوي ـ د/ خليل عمايرة
-48 مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة ـ د/ نعمة رحيم
-49 المنهج الوصفي في كتاب سيبويه د/ احمد حسن
-50 مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة د/ نعمة رحيم العزاوي
-51 علم اللغة التقابلي د/ احمد سليمان ياقوت
-52 التحليل اللغوي د/ خليل عمايرة
-53 مناهج البحث اللغوي
-54 مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة ـ د/ نعمة رحيم

-55 النحو العربي والدرس الحديث /د/ عبده الراجحي

-56 اللغة العربية وعلم اللغة البنيوي حلمي خليل

-57 اللغة بين المعيارية والوصفية ت د/ تمام حسن

-58 علم اللغة التقابلي د/ احمد سليمان ياقوت

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

مقدمة 01

الفصل الاول نشأة النحو العربي

تمهيد 05

السماع أصل النحو 05

أسباب نشأة النحو العربي 07
أشهر علماء النحو العربي في بداية النشأة 10
أطوار النحو العربي 18
ظهور أبرز المدارس النحوية 20
مدرسة البصرة 23
مذهب البصرة 24
مذهب الكوفة 27
الخلاف بين البصريينوالكوويين 29

الفصل الثاني الدراسات اللغوية بين الأصالة والمعاصرة

تمهيد 32
الدراسات اللغوية بين الأصالة والمعاصرة 33
المدرسة البنيوية 34
الدراسات اللغوية بين الوصف والتحويل 37
الوظائف النحوية و الدرس اللغوي الحديث 42
اللغة بين الوصفية والوظيفية 44
عناصر تطبيق المنهج التحويلي 51
الخاتمة 55
قائمة المراجع 58